

الإسلام  
ومشكلات  
الحضارة

سَيِّدُكَ  
قُطْبُ

دار الشروق



الْإِسْلَامُ وَمَشْرِكَ الْجَنَّةِ

الطبعة الشرعية السادسة  
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - بريقا: الشروق - تلكن: SHOROK 20176 LE  
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - بريقا: شروق - تلكن: SHROK UN 93091

سَيِّدُ قُطَيْبٍ

الإِسْلَامُ وَمَشِيكَالُ الْحَضَارَةِ

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تدمير الإنسان

الحياة الإنسانية - كما هي سائرة اليوم وكما هي سائرة وفق جميع التقديرات الظاهرة - لا يمكن أن تستمر في طريقها هذا ، ولا بد لها من تدمير أساسي في القاعدة التي تقوم عليها .  
تغيير يعصمها من تدمير « الإنسان » ذاته ، بتدمير خصائصه الأساسية . فالحياة الإنسانية - بداهة - لا تستطيع أن تبقى إذا ما دمرت خصائص « الإنسان » .

وخط الحياة الحالي يمضي يوما بعد يوم في تدمير خصائص الإنسان ؛ ونحوه إلى آلة من ناحية ، وإلى حيوان من ناحية أخرى . . وإذا كان هذا الخط لم يصل إلى نهايته بعد ؛ وإذا كانت آثار هذه النهاية لم تتضح انضاحا كاملا . . فالذي ظهر منها حتى اليوم ، في الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة المادية ، يشي بتناقص الخصائص الإنسانية وضمورها وتراجعها ، بقدر ما يشي بنمو الخصائص الآلية والحيوانية فيها وتضخمها وبروزها . .

.. وهذا يكفي ..

يكفي لتقرير أن خط الحياة الحالي يمضي يوما بعد يوم في تدمير خصائص الإنسان ، ولتقرير أن الحياة الإنسانية لا يمكن - إذن - أن تمضي مع هذا الخط إلى نهايته . .  
مالم يكن مقرا تدميرها نهائيا . . والأمل في رحمة الله يمنع من توقع هذا المصير البائس ، ويوجه توقعاتنا إلى ناحية أخرى : ناحية تجنب الإنسانية - بفطرتها وطبيعتها ، وبعوامل الحسد والحذر والاحتياط الكامنة في كيانها - لهذا المصير البائس ، بالتحول عن طريق

الخطر في الوقت المناسب . واختيار خط آخر وطريق آخر . والتغلب على هذه الأزمة التي يجد « الإنسان » فيها نفسه على حافة الهاوية . وهو مندفع إليها بعنف ، وهو في الوقت ذاته لا يملك الخيار ، لأن عوامل كثيرة تكاد تفقده قوة الاختيار !

وفي كل مرة كانت الحياة « الإنسانية » والخصائص « الإنسانية » مهددة تهديدا مدمرا ماحقا ، وقع التحول - بطريقة خفية ، كثيرا ما كانت مجهولة الأسباب في حينها - وتجنبت البشرية ذلك الدمار « الإنساني » . أما في هذه المرة فالتهديد أشد من كل ما عرفته البشرية من قبل من كل أنواع التهديدات .

ولقد كان الكثيرون عقدوا آمالهم في هذا التغيير على « الماركسية » . على المادية الجدلية ، وعلى التفسير الاقتصادي للتاريخ .. ولكن هذا لم يكن إلا وهما . فالماركسية - مع التفسير المادي الجدلي للتاريخ - لا تمثل إلا دفعة في خط الدمار ذاته . وليست تحولا أصلا . لافي طبيعة الخط ولا في اتجاهه .. إنها القمة التي يصل إليها الخط المادي في التفكير ، والآلية المادية في تصور وتكييف الحياة البشرية ..

كذلك يتجلى فشل كل المحاولات الأخرى ، التي يراد بها وضع « أيديولوجية » جديدة ، تجد فيها البشرية غناء ، وتجد فيها مخرجا من الأزمة الحادة التي انتهت إليها ، فكلها أفكار جزئية سطحية ؛ وكلها محاولات مصطنعة لا جذور لها في الفطرة البشرية ! وحين تلتفت من حولنا في الماضي والحاضر ، وفي المستقبل كذلك ، لا نجد الحل المقترح لتجنب البشرية ذلك الدمار ، وللخروج بها من هذه الأزمة الحادة ؛ وللاحتفاظ « بالإنسان » عن طريق الاحتفاظ بخصائصه الإنسانية - احتفاظا ناميا متجددا - إلا في التصور الإسلامي ، والمنهج الإسلامي ، والحياة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي . ومن ثم نعتقد أن قيام المجتمع الإسلامي ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية . وأنه إذا لم

يقم اليوم فسيقوم غدا ، وإذا لم يقم هنا فسيقوم هناك . ليعصم البشرية من « تدمير الإنسان » عن طريق تدمير خصائصه الإنسانية ، ومن تدمير الحياة الإنسانية التي لا تقوم بغير إنسان محتفظ بخصائصه الإنسانية ، في حالة بقاء وارتقاء .

\*\*\*

ولكن كيف تبدو الحياة الإنسانية مهددة بتدمير الإنسان عن طريق تدمير خصائصه الإنسانية ، في ظل الحضارة القائمة ، وعلى امتداد الخط الذي تسير فيه الحياة الإنسانية اليوم . بصفة عامة - الأمر الذي يجعل قيام المجتمع الإسلامى ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية ؟ لعله يحسن أن نكشف عن أهم عناصر هذه المأساة في اختصار ..

إن أهم عناصر هذه المأساة تتمثل في :

١ - جهلنا المطبق بالإنسان - على الرغم من سعة علمنا نسبيا بالمادة ، وبطرائق التصنيع المادية ، القائمة على أصول فنية راقية - ومن ثمّ عدم استطاعتنا أن نضع له - من عند أنفسنا - نظاما شاملا لجوانب حياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ، ويحتفظ بها جميعا في حالة تجدد ونمو وازدهار ، موسوم بالتناسق والاعتدال .

٢ - تخطيط الحياة البشرية لقيامها على أساس من هذا الجهل ، منذ افترق طريقها عن المنهج الذى وضعه للإنسان صانعه الحكيم ، الخبير بفطرته وبخصائصه .. المنهج المراعى فيه تلبية حاجته الفطرية الحقيقية كاملة ، وتنمية خصائصه وترقيتها كذلك ، حتى تتكافأ مع الدور المقسوم لهذا الكائن في الخلافة في الأرض ، وتنمية الحياة فيها وترقيتها ، واستغلال كنوزها وطاقاتها كلها في التعمير والتنمية والارتقاء .

٣ - قيام حضارة مادية لا تلائم الإنسان ، ولا تحترم خصائصه تعامله بالمقاييس الآلية - التى هى في دائرة علمنا ومعرفتنا المتقدمة - وبالمقاييس الحيوانية ، التى أمكن دراستها في عالم الحيوان !

٤ - بروز آثار هذه الحضارة وتضخمها في الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة المادية ،  
وسارت شوطا بعيدا في تطبيق المنهج الآلى الحيوانى على الحياة الإنسانية ، بدون  
كبير اعتبار للخصائص الإنسانية الأصلية ، التي تفرق « الإنسان » من « الآلة »  
ومن « الحيوان » . وظهور طلائع مفرقة ، تنذر بما وراءها من الدمار . .  
وتناول هذه العناصر بشيء من الشرح والإيضاح يكفى لتصوير حقيقة المأساة التي  
تعيشها البشرية بجملتها اليوم - شاعرة أو غير شاعرة - ولتصوير حقيقة الكارثة التي  
تنحو البشرية بجملتها نحوها - شاعرة كذلك أو غير شاعرة - كما يكفى كذلك لإثارة التطلع  
إلى رحمة الله لتجنيب البشرية ذلك المصير البائس ، بالاستماع إلى نداء الفطرة ، وصوت  
الله ، ولو في آخر اللحظات .

## الإنسان ذلك المجهول

هذا العنوان ليس من عندنا ، إنما هو من عند « عالم » أوربي - أمريكي - لا يجادل « علماء » الحضارة الحديثة في مكانته « العلمية » ولا في « حداثة » نظرياته - أو دراساته بتعبير أدق - ولا في جدتها .

إنه عنوان كتاب مشهور للدكتور « ألكسيس كاريل <sup>(١)</sup> » .

والكتاب يعرفنا بنفسه وبكتابه في مقدمة هذا الكتاب . وسنحتاج أن ننقل قسماً كبيراً من هذا التعريف في هذا الفصل ، لأهميته في الاستدلال الذي نرى إليه ، وذلك قبل أن نقبس آراء هذا « العالم » الكبير عن « جهلنا المطبق » بالإنسان ...

« لست فيلسوفاً ، ولكني رجل علم فقط ، قضيت الشطر الأكبر من حياتي في العمل ، أدرس الكائنات الحية ، والشطر الباقي في العالم الفسيح ، أراقب بني الإنسان ، وأحاول أن أفهمهم . . . ومع ذلك فإنني لا أدعى أنني أعالج أمورا خارج نطاق حقل الملاحظة العلمية .

« إنني أحاول أن أصف في هذا الكتاب ما هو معروف بعد أن أفصله بكل وضوح عن كل مديح . كما أعترف بوجود المجهول غير المعروف .

(١) ولد الدكتور كاريل بالقرب من ليون في فرنسا ، وحصل على إجازة الطب بها ، كما حصل على إجازة العلوم من ديجون . وبعد أن مارس التدريس في جامعة ليون عدة أعوام رحل إلى الولايات المتحدة . واشتغل في معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك . وبقى به قرابة ثلاثين عاماً حتى اعتزل العمل به سنة ١٩٣٩ . ثم عهدت إليه وزارة الصحة الفرنسية بمهمة خاصة تتعلق بالحرب ، وكانت هذه المهمة تكملة لمهمة اضطلع بها إبّان الحرب العالمية الأولى ، عندما كان يعمل جراحاً مع القوات الفرنسية والبريطانية والأمريكية . . . ومنح جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة . .

« ولقد اعتبرتُ » الإنسان « ملحقاً للملاحظات والتجارب ، في جميع الأوقات والبلدان ، بيد أنني لم أصف إلا ما رأيته بناظري ، أو عرفته مباشرة من أولئك الذين كنت على صلة بهم . وكان من حسن حظي ، أن سمح لي مركزي بأن أدرس - دون بذل أى مجهود ، أو الطمع في أى ثناء - ظواهر الحياة في تعقيدها المخيف . فلاحظت كل وجه من وجوه النشاط البشري بصفة عملية ، كما أنني لم بكل ما يكتنف الفقير والغني ، الصحيح والسقيم ، المتعلم والجاهل ، ضعيف العقل والمجنون ، الذكي والجرم ... الخ ... كذلك فإنني أعرف الفلاحين والعمال ، الكتبة وأصحاب المتاجر ، المالين وأصحاب المصانع ، الساسة ورجال الحكم ، الجود وأساتذة الجامعات ، المدرسين ورجال الدين ، البرجوازيين والأرستقراطيين . . . ولقد ألفت بي الظروف في طريق الفلاسفة والفنانين ، والشعراء والعلماء ، والعاقرة والقديسين . . . كما درست في الوقت نفسه التركيب الميكانيكي الفأر في أعماق الأسجة وتلافيف المخ ، الذي هو في الحقيقة الأساس العميق للظواهر العضوية والعقلية .

« إنني مدين لفنون الحياة المصرية ، لأنها مكنتني من مشاهدة هذا المنظر العظيم ، كما أتاحت لي فرصة توجيه انتباهي إلى عدة موضوعات في وقت واحد . . . إنني أعيش في العالم الجديد والقديم أيضا . . . وأمتاز بأنني أقضي معظم وقتي في « معهد روكفلر للبحث الطبي » كواحد من العلماء الذين جمعهم « سيمون فليكسنر » معاً في هذا المعهد . . . فهناك أفكر في ظواهر الحياة حيما يحللها الخبراء الذين لا يبارون ، أمثال « ملنزر » و « جاك لويب » و « نجيوشي » ، وكثيرون غيرهم . ولما اتصف به « فليكسنر » من عبقرية ونبوغ ، فقد درست الكائنات الحية بنظرة فسيحة الأفق ، بشكل لم يسبق له مثيل - فالمادة تفحص وتستقصى في كل قسم من معامل هذا المعهد ، بحثاً عن ارتقاها وتطورها من ناحية صنع الإنسان .

« وبمساعدة أشعة إكس يكشف علماء الطبيعة عن بناء جزيئات مواد أنسجتنا الأكثر بساطة - أى العلاقات الاتساعية للذرات التى تدخل فى تركيب هذه الجزيئات - ويعكف الكيماويون ، والكيمائيون الطبيعيون ، على تحليل المواد الأكثر تعقيدا ، التى توجد بداخل الجسم ، كيميوجلو بين الدم ، وبروتينات الأنسجة ، وأخلط الجسم ، والتخمرات التى تسبب ذلك الانقسام المستمر ، وإيجاد ذلك المجموع الكلى الهائل من الذرات .

« وهناك كيمائيون آخرون لم يقصروا اهتمامهم فى تركيبات الجزيئات وحدها ، وإنما انصرفوا إلى التفكير فى علاقات تلك التركيبات إحداها بالأخرى ، عندما تدخل عصارات الجسم . . أو باختصار . . ذلك التعادل الطبيعى - الكيماوى الذى يحفظ دائما تركيب مصل الدم ، بالرغم من التغير الذى يطرأ على الأنسجة بصفة مستمرة .

« وهكذا ألقى الضوء على الجوانب الكيماوية للظاهرة الفسيولوجية ، لأن كثيرين من علماء وظائف الأعضاء يدرسون - مستعينين فى ذلك بفنون شديدة الاختلاف - التركيبات الأكبر التى تنتج من مجموع الجزيئات وترتيبها ، كذا خلايا الأنسجة والدم ، أو بمعنى آخر : مادة الحياة نفسها . . إنهم يختبرون هذه الخلايا ، وطرق اتحادها ، والقوانين التى تحكم علاقاتها بما يحيط بها ، وتأثير الوسط الكونى على هذا المجموع ؛ كذا تأثيرات المواد الكيماوية على الأنسجة والشعور .

« وهناك إخصائيون آخرون ، وقفوا أنفسهم على البحث فى تلك الكائنات الضئيلة : الفيروس والبكتريا ، التى تعزى إصابتنا بالأمراض المعدية إلى وجودها فى دمنا . كذا الوسائل الرائعة التى يستخدمها الجسم فى مقاومتها . . وأيضا الأمراض القتالة كالسرطان ، وأمراض القلب ، والتهاب الكلى .

« وأخيرا فإن مشكلة « الفردية »<sup>(١)</sup> الخطيرة ، وأساسها الكيماوى تهاجم الآن بنجاح .

« وقد أتاحت لى فرصة استثنائية للاستماع إلى رجال عظماء تخصصوا فى هذه الأبحاث ، وتتبع النتائج التى أسفرت عنها تجاربهم . . . وهكذا بدت لى الجهود التى تبذلها المادة الجامدة فى نظام الجسم ، وخواص الكائنات الحية ، وتناسق جسمنا وعقلنا . . . بدت لى هذه الأشياء فى أوج جمالها .

وعلاوة على ذلك فقد درست أكثر الموضوعات المختلفة ، من الجراحة ، إلى فسيولوجية الخلية ، إلى الميتافيزيقا<sup>(٢)</sup> .

« ولقد كان ذلك مستطاعا بسبب التسهيلات التى وضعت لأول مرة تحت تصرف العلم لى يؤدى رسالته » . . . ( ص ٥ - ص ٨ )

\*\*\*

هذا الرجل الذى أتاحت له فرصة الانتفاع بكل هذه التيسيرات ، والذى اطلع على نتائج هذه البحوث مجتمعة حول « الإنسان » هو الذى يصدر بعد ذلك كتابا يسميه « الإنسان ذلك المجهول »<sup>(٣)</sup> . والذى يقرر أن حقيقة علمنا عن الإنسان لا شيء ! وأنا نعيش فى « جهل مطبق » بهذا الكائن ، الذى هو نحن !  
ولندعه هو يتكلم :

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجداد وعلوم الحياة . . . فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها ، بسداد وفصاحة ، باللغة الحسابية . وقد

(١) كون كل فرد إنسانى له خصائص ذاتية - غير الخصائص الإنسانية المشتركة - تجعله كائنا بذاته أو عالما بذاته .

(٢) ما وراء الطبيعة .

(٣) تعريب شفيق أسعد فريد . منشورات مكتبة المعارف بيروت.

أنشأت هذه العلوم عالماً متناسقاً كتناسق آثار اليونان القديمة . إنها تنسج حول هذا العالم نسيجاً رائعاً من الإحصاءات والنظريات .

« بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى ليبدو كأن الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم في غاب متشابك الأشجار ؛ أو أنهم في قلب دغل سحري ، لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها ! فهم يرزحون تحت عبء أكدهاس من الحقائق ، التي يستطيعون أن يصفوها ، ولكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها في معادلات جبرية . فمن الأشياء التي تراها العين في عالم الماديات ، سواء كانت ذرات أم نجوماً ، صخوراً أم سحباً ، صلباً أم ماء . . . أمكن استخلاص خواص معينة كالثقل والأبعاد الاتساعية . . وهذه المستخلصات - وليست الحقائق العلية - هي مادة التفكير العلمي . . وملاحظة الأشياء تمدنا فقط بأقل صور العلم شأناً ، ونعني بها الصورة الوصفية . فالعلم الوصفي يرتب الظواهر . بيد أن العلاقات التي لا تتغير ، بين الكميات غير القابلة للتغير - أي القوانين الطبيعية - تظهر فقط عندما يصبح العلم أكثر معنوية . وما ذلك النجاح العظيم السريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء إلا لأنهما علمان معنويان كميان . فعلى الرغم من أنهما لا يدعيان أنهما يكشفان القناع عن الطبيعة النهائية للأشياء ، فإنهما يمداننا بقوة التنبؤ بحدوث المستقبل ، وتقرير كيفية وقوعها طبقاً لإرادتنا . وبتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريباً على كل شيء موجود على ظهر البسيطة . . فيما عدا أنفسنا . .

« ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة - والإنسان بصفة خاصة - لم يصب مثل هذا التقدم .. إنه لا يزال في المرحلة الوصفية .. فالإنسان كل لا يتجزأ ، وفي غاية التعقيد ؛ ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ؛ وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه ،

أوفى أحزائه ، في وقت واحد . كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى .  
ولكى نحلل أنفسنا فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة ؛ وإلى استخدام علوم  
عديدة . ومن الطبيعى أن تصل كل هذه العلوم إلى رأى مختلف فى غايتها المشتركة ، فإنها  
تستخلص من الإنسان ما تمكها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط . وبعد أن تضاف هذه  
المستخلصات بعضها إلى بعض ، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة .. إنها تخلف  
وراءها بقية عظيمة الأهمية ، بحيث لا يمكن إهمالها .

« إن التشريح والكيمياء ، والفسيولوجيا . وعلم النفس ، والبيداجوجيا ( فن التعليم )  
والتاريخ وعلم الاجتماع ، والاقتصاد السياسى .. لا تلم بجوانب موضوعها كلها .  
و « الإنسان » - كما هو معروف للإخصائين - أبعد من أن يكون « الإنسان الجامد » .  
« فالإنسان الحقيقى » لا يزيد أن يكون رسماً بيانياً ، يتكون من رسوم بيانية أخرى  
أنشأتها فنون كل علم . وهو - فى الوقت نفسه - « الجثة » التى شرحها البيولوجيون  
( علماء الحياة ) ، و « الشعور » الذى لاحظته علماء النفس وكبار معلمى الحياة الروحية ،  
و « الشخصية » التى أظهر التأمل الباطنى لكل إنسان أنها كامنة فى أعماق ذاته . . إنه  
- أى الإنسان - عبارة عن « المواد الكيماوية » التى تؤلف الأنسجة وأخلاط  
أحسامنا . . إنه تلك الجمهرة المدهشة من « الخلايا والعصارات المغذية » التى درس  
الفسيولوجيون ( علماء وظائف الأعضاء ) قوانينها العضوية . . إنه ذلك « المركب من  
الأنسجة والشعور » الذى يحاول علماء الصحة والمعلمون أن يقودوه إلى الدرجات العليا أثناء  
نموه مع الزمن . . إنه ذلك « الكائن الحى العالمى » الذى يجب أن يستهلك بلا انقطاع  
السلع التى تنتجها المصانع ، حتى يمكن أن تظل الآلات - التى جعل لها عبداً - دائرة  
بلا توقف . . ولكنه قد يكون أيضاً شاعراً ، أو بطلاً أو قديساً . . إنه ليس فقط ذلك

المخلوق شديد التعقيد الذى تحلله فنوننا العلمية ، ولكنه أيضا تلك « الميول والتكهنات وكل ماتنشده الإنسانية من طموح .

« وكل آرائنا عنه مشربة بالفلسفة العقلية .. وهذه الآراء جميعا تنهض على فيض من « المعلومات غير الدقيقة » بحيث يراودنا إغراء عظيم لنختار من بينها ما يرضينا ويسرنا فقط . ومن ثم فإن فكرتنا عن « الإنسان » تختلف تبعا لإحساساتنا ومعتقداتنا .. فالشخص المادى والشخص الروحى يقبلان نفس التعريف الذى يطلق على بلورة من « الكلوريد » . ولكنهما لا يتفقان أحدهما مع الآخر فى تعريف « الكائن الحى » .. وعالم وظائف الأعضاء الذى يبحث فى « عمليات الجسم الميكانيكية » وعالم وظائف الأعضاء الذى يبحث فى « مذهب الحياة نفسه » لا يمكن أن ينظرا إلى جسم الإنسان من زاوية واحدة . وكذلك فإن الكائن الحى كما يراه « جاك لويب » ، يختلف اختلافا عظيما عما يراه « هانز » و « ريش » .

« وفى الحق لقد بذل الجنس البشرى مجهودا جبارا لى يعرف نفسه ، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء . وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمان ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا .. إننا لا نفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة .

وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح

تسير فى وسطها حقيقة مجهولة ! !

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين

يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا

الباطنية ، مازالت غير معروفة . فنحن لا نعرف حتى الآن ، الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

« كيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

« كيف تقرر « الجنس » ( ناقلات الوراثة ) في نواة البيضة الملقحة ، صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

« كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهم كائنات والنحل تعرف مقدما الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع ، وتساعد العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته .

« ماهي طبيعة تكويننا النفساني والفسولوجي ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة ، والأعضاء ، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ مازالت لغزاً . إننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية . . إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟ على أي وجه نستطيع الخصائص العضوية العقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة طريق الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ ، والنظم النفسية والأدبية ؟

« إننا مازلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات والأعضاء ، ووجوه النشاط العقلي والروحي . . وما زلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ، ومقاومة التعب ، والكفاح ضد الأمراض .

« إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبي ، وقوة الحكم ، والجرأة . . ولا ماهي الأهمية النسبية للنشاط العقلي والأدبي . . كذلك النشاط الديني .

« أي شكل من أشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور أو الخواطر ؟  
« لا شك مطلقاً في أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هي التي تقرر السعادة

أو التعاسة ، النجاح أو الفشل . . ولكننا لا نعرف ماهى هذه العوامل . . إننا لا نستطيع أن نهيب أى فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية .  
« وحتى الآن فإننا لا نعرف أى البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدن وتقدمه .

« هل فى الإمكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجى والروحى ؟

« كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه فى المدنية العصرية ؟  
« وهناك أسئلة أخرى لاعداد لها ، يمكن أن تلقى فى موضوعات تعتبر فى غاية الأهمية بالنسبة لنا . . ولكنها ستظل جميعا بلا جواب . . فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ، غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب . . . » ص ( ١٣ - ١٨ )

\*\*\*

ولكن لماذا كان جهلنا مطبقا بحقيقة الإنسان ؟ لماذا كانت هذه الحقيقة تسير فى موكب من الأشباح ، بحيث لا نستطيع رؤيتها بوضوح ؟ ولماذا كان الذين يدرسون الحياة كمن ضلوا طريقهم فى غاب متشابك الأشجار ، أو فى قلب دغل سحرى ، لا تكف أشجاره التى لا اعداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها ؟ !

هل كان ذلك لقصور وسائلنا العلمية فى فترة من الفترات ؟ أم لظروف وقتية من ظروف حياتنا الإنسانية ؟ ومن ثم يكون هناك أمل كبير وفرص كثيرة لتكملة تلك الوسائل ، وتغيير هذه الظروف ، ثم الوصول إلى معرفة الحقيقة الإنسانية كاملة واضحة محددة ؟

أم إن هناك أسبابا ثابتة في طبيعة الحقيقة الإنسانية من جهة ، وفي طبيعة تفكيرنا وعقولنا من جهة أخرى ، هي التي تنشئ تعذر الوصول إلى هذه الحقيقة بمثل الوضوح والدقة المهودين في عالم المادة ؟

يقرر العالم الكبير وحدود هذه الأسباب وتلك ؛ ويقرر أنه لا أمل في إزالة هذا النوع الأخير من أسباب تعذر رؤية هذه الحقيقة . يقرر هذا في أسلوب العالم ، الذي واجه هذه الحقيقة ، وعرف طاقة العلم وحدوده في مجالها . . . ومع أن الاقتباس من كلامه سيطول ، فإننا نؤثر أن ندعه هو يتكلم في هذه النقطة بأسلوبه الخاص ومن وجهة نظره التي قد نوافقه على بعضها ، ونخالفه في بعضها :

« قد يعزى جهلنا في الوقت ذاته ، إلى طريقة حياة أجدادنا . وإلى طبيعتنا المعقدة

وإلى تركيب عقلنا . . .

« مهما يكن من أمر ، فقد كان على الإنسان أن يعيش . وهذه الضرورة طالبت به بقهر العالم الخارجي . وإذا لم يكن له مفر من الحصول على الغذاء والمأوى ، كما لم يكن له مفر من قتال الحيوانات المتوحشة وغيره من بني الإنسان . . . ولآماد طويلة لم يفز أجدادنا الأوائل بوقت فراغ ، كما لم يشعروا بأي ميل إلى دراسة أنفسهم ، إذ كانوا يستخدمون عقولهم في أمور أخرى كصناعة الأسلحة والأدوات ، واكتشاف النار ، وتدريب الماشية والحياد ، واختراع المركبات ، وزراعة الحبوب . . الخ . . وقبل أن يهتموا بتركيب أبدانهم وعقولهم بوقت طويل ، فكروا في الشمس والقمر والنجوم ، والتيارات المائية ، وتوالى الفصول الأربعة . . ولهذا تقدم علم الفلك بخطى واسعة ، في عهد كان علم الفسيولوجيا لا يزال غير معروف بتاتا . . فقد قهر جاليليو الأرض وهي مركز المجموعة الشمسية . وذلك على أنها تابع متواضع من توابع الشمس . بينما لم تكن لدى

معاصريه أية فكرة ، ولو أولية ، عن تركيب ووظائف العقل والكبد ، وغدة  
التيارويد ( الغدة الدرقية ) . ونظراً لأن الجسم البشرى يؤدي وظائفه بطريقة مرضية في  
أحوال الحياة الطبيعية ، ولا يحتاج لأى اهتمام ، فقد تقدم العلم في الاتجاه الذى وجهه  
إليه حب الاستطلاع البشرى - أى فى اتجاه العالم الخارجى .

« ومن بين ملايين الملايين من الجنس البشرى الذين سكنوا هذا العالم بالتعاقب ،  
كان يولد أشخاص قلائل ، من حين لآخر ، وهبتهم الطبيعة <sup>(١)</sup> قوى مدهشة نادرة ،  
كسرعة إدراك الأشياء المجهولة ، والخيال الذى ابتدع عوالم جديدة ، والقدرة على اكتشاف  
العلاقات الخفية الموجودة بين ظواهر معينة . . وقد استكشف هؤلاء الرجال العالم  
المادى . . وهو عالم بسيط التركيب . ومن ثم فقد استسلم بسرعة لهجمات العلماء ،  
وسلم أسرار قوانين معينة من قوانينه . وقد مكنتنا معرفة هذه القوانين من استخدام  
عالم المادة لفائدتنا . فإن التطبيق العملى للاكتشافات العلمية يدرربحاً على أولئك الذين  
يحسنونها ويرتقون بها . وفضلاً عن ذلك ، فإن استخدامها يؤدي إلى تسهيل  
حياة الجميع . . إن هذه الاكتشافات تسر الجمهور ، لأنها تزيد فى راحته ورفاهيته .  
وبالطبع أصبح كل شخص أكثر اهتماماً بالاكتشافات التى تقلل من بذل الجهود الأدمى ،  
وتخفف العبء عن العامل ، وتزيد فى سرعة وسائل المواصلات ، وتلطف من خشونة  
الحياة ، أكثر من اهتمامه بالاكتشافات التى تلتقى بعض الضوء على أجسامنا وإحساساتنا . .

---

(١) على الرغم من إيمان الرجل بالله . . الإيمان القائم على مشاهدته للحقيقة فى المجال العلمى . . فإنه  
تندس فى تعبيره مثل هذه الجملة « وهبتهم الطبيعة » بحكم الوراثة والرواسب الثقافية الفائرة .  
وهو تعبير لا معنى له فى العقل المؤمن ! فإن الواهب هو الله ؛ والطبيعة - بمعنى الكون - من خلق الله ،  
ومى غير قادرة على الهبة ولا الخلق ، لأنها ليست إلهاً ، فلا إله إلا الله . ومن ثم لا خالق إلا الله .  
ولا واهب إلا الله .

وهكذا أدى قهر<sup>(١)</sup> العالم المادى ، الذى استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة ، إلى نسيان العالم العضوى والروحى نسيانا تاما .

« وحقيقة الأمر أنه لم يكن مناص من معرفة ما يحيط بنا . ولكن ذلك لا يعنى أن معرفة طبيعتنا أقل أهمية . . . ومع ذلك فقد اجتذب المرض والألم والموت ، وإلى حد ما تلك اللهفة الغامضة من نمو تلك القوة الخفية التى تسمو على عالمنا المادى . . . كل هؤلاء اجتذبوا انتباه بنى الإنسان - إلى درجة ما - نحو العالم الداخلى لأجسامهم وعقولهم .

« وقد قنع الطب فى بادىء الأمر ، بالمشكلة العملية ، أى إراحة الإنسان من المرض عن طريق الوصفات . ولكنه - أى الطب - أدرك أخيرا ، أن الطريقة الفعالة لمنع المرض أو الشفاء منه ، هى فهم الجسم الطبيعى والجسم المريض فهما تاما . . . وبعبارة أخرى إنشاء العلوم التى تعرف باسم « علم التشريح » و « علم كيمياء الحياة » و « علم وظائف الأعضاء » و « علم الأمراض » . . .

« وعلى كل حال كان يبدو لأسلافنا أن لغز وجودنا ، ومتاعبنا الأدبية ولهفتنا على المجهول ، وظاهرة علم ما وراء المادة ، أكثر أهمية من الآلام البدنية والأمراض . ومن ثم فقد اجتذبت دراسة الحياة الروحية والفلسفة أنظار رجال عظام أكثر مما اجتذبتهم دراسة الطب . فعرفت قوانين « التصوف » قبل أن تعرف قوانين علم وظائف الأعضاء . . . ولكن أمثال هذه القوانين عرفت فقط عندما ظفر الإنسان بوقت فراغ كاف ، جعله

---

(١) التعبير بكلمة « قهر » ظاهرة من ظواهر العقلية الغريبة ؛ تنشأ عن راسب من رواسب الأساطير الإغريقية والرومانية ؛ ويفذها منطق « القوة » السائد فى أوروبا الاستعمارية . . . إذ تقوم كل علاقة فى حس الأوربي على أساس « قاهر » و « مقهور » . . . إذ ليس هناك علاقة « التفاهم » أو « الصداقة » . أما فى الحس المسلم فالله هو الذى يسخر الكون للإنسان ، والإنسان « يتعرف » إلى النواميس الكونية فينتفع بها بإذن الله . . . (راجع بتوسع كتاب : خصائص التصور الإسلامى ومقوماته . . . للمؤلف . . .

يحول قليلا من اهتمامه إلى أشياء أخرى غير قهر العالم الخارجى .  
« و ثم سبب آخر للبطء الذى اتسمت به معرفتنا لأنفسنا . . وذلك أن تركيب  
عقولنا يجعلنا نبتهج بالتفكير فى الحقائق البسيطة ، إذ أننا نشعر بضرب من النفور حين  
نضطر إلى تولى حل مشكلة معقدة مثل تركيب الكائنات الحية والإنسان . . فالعقل  
- كما يقول برجسون - يتصف بعجز طبيعى عن فهم الحياة . . وبالعكس فإننا نحب أن  
نكشف فى جميع العوالم ، تلك الأشكال الهندسية الموجودة فى أعماق شعورنا . . إن دقة  
النسب البادية فى تماثيلنا ، وإتقان آلاتنا ، يعبران عن صفة أساسية لعقلنا . . فالهندسة  
غير موجودة فى دنيانا وإنما أنشأناها نحن . إذ أن وسائل الطبيعة لا تكون أبداً بالدقة التى  
تتصف بها وسائل الإنسان . فنحن لا نجد فى العالم ذلك الوضوح وتلك الدقة اللتين  
يتصف بهما تفكيرنا . . ومن ثم فإننا نحاول أن نستخلص من تعقد الظواهر ، بعض  
الفظم البسيطة التى تحمل عناصر ، لإحداها بالأخرى علاقات معينة ، تكون قابلة للوصف  
حسابياً . وقدرة الاستخلاص هذه التى يتمتع بها العقل البشرى مسؤولة عن ذلك التقدم  
الرائع الذى أحرزه علماء الطبيعة والكيمياء .

« ولقد لقيت الدراسة الطبيعية - الكيماوية للكائنات الحية نجاحاً مماثلاً ، فقوانين  
الطبيعة والكيمياء متماثلة فى عالم الكائنات الحية وعالم الجواد - كما خطر ببال كلود برنار منذ  
أمد بعيد - وهذه الحقيقة توضح لماذا اكتشف علم وظائف الأعضاء الحديث مثلاً ، أن  
استمرار قلبية الدم وماء المحيط تفسرها قوانين متماثلة ، وأن النشاط الذى تستهلكه  
العضلات المتقلصة يقدمه تخمر السكر . . الخ ، وأن النواحي الطبيعية - الكيماوية  
للكائنات الحية يسهل تقريباً فحصها ، مثل تلك النواحي فى الأشياء الأخرى الموجودة فى  
العالم المادى . تلك هى المهمة التى نجح علم الوظائف العام فى تحقيقها .

« إن دراسة الظواهر الفسيولوجية الحقة - أى تلك الظواهر التى تنتج من تنظيم الكائن الحى - تواجه عقبات أكثر أهمية ، إذ أن شدة ضالة الأشياء التى يجب تحليلها ، تجعل من المستحيل استخدام الفنون العادية لعلمى الطبيعة والكيمياء . . فأى طريقة يمكن أن تكشف القناع عن التركيب الكيماوى لنواة الخلية الجنسية ، والكروموسومات ، والجنس التى تؤلف هذه الكروموسومات ؟ مهما يكن فإن المجموع الكلى للمواد الكيماوية الشديدة الضالة ، على أعظم جانب من الأهمية ، لأنها تحتوى على مستقبل الفرد والجنس . كما أن قابلية أنسجة معينة لسرعة العطب - مثل المادة العصبية - عظيمة إلى درجة أن دراستها فى حالة لإحياة مستحيلة تقريباً .

« ونحن لا نملك أى فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه ، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه . . وعقلنا الذى يحب ذلك الجمال البسيط للتركيب الحسابية ، ينتابه الفرع حينما يفكر فى تلك الأكداس الهائلة من الخلايا ، والأخلاط ، والإحساسات التى يتكون منها الفرد . . ومن ثم فإننا نحاول أن نطبق على هذا المخلوط ، الأفكار التى ثبتت فائدتها فى مملكة الطبيعة والكيمياء والميكانيكيات . . كذا فى النظم الفلسفية والدينية . . ولكن مثل هذه المحاولة لا تلقى نجاحاً كبيراً ، لأن أجسامنا لا يمكن أن تختزل إلى نظام طبيعى - كيماوى ، أو إلى كيان روحى . . بالطبع إن على « علم الإنسان » أن يستخدم آراء جميع العلوم الأخرى ، ولكن عليه أيضاً أن ينمى آراءه الخاصة ، لأنه علم جوهري مثل علوم الجزيئات والذرات والإلكترونات .

« صفوة القول : أن التقدم البطيء فى معرفة بنى الإنسان - إذا قورن بالتقدم

الرائع فى علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكا - يعزى إلى :

١ - حاجة أجدادنا إلى وقت فراغ .

٢ - وإلى تعقد الموضوع .

٣ - وإلى تركيب عقولنا

« وهذه العقبات أساسية . وليس هناك أمل في تذليلها . وسيظل التغلب عليها شاقا يستلزم جهودا مضنية . . »

« إن معرفة نفوسنا لن تصل أبدا إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، والجمال ، التي بلغها علم المادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفى العناصر التي أخرجت تقدم علم الإنسان . . فعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان « هو أصعب العلوم جميعا » . »

\*\*\*

وهكذا يتضح من تقريرات هذا العالم الكبير ، الذي أتيت له فرصة الاطلاع على نتائج البحوث الضخمة ، أن هناك فارقا أساسيا بين علوم المادة وعلوم الحياة . وأن هناك بالذات فارقا أساسيا بين طبيعة علوم المادة ، وطبيعة علم الإنسان ؛ وبين طبيعة موقف العقل من هذه وتلك . وأن هذا الفارق كامن في أمرين ثابتين ، لا يتعلقان ببيئة ولا زمان ، ولا بظروف وقتية مرهونة بالزمان والمكان . . هما :

١ - تعقد الموضوع

٢ - طبيعة تركيب عقولنا

وأن تقدم الإنسان في علوم المادة ، وإبداعه في العالم المادي ، وصحة بحوثه ونظرياته في ذلك الحقل ، لا تقتضى تقدمه في علم الإنسان ، ولا صحة بحوثه ونظرياته في هذا الحقل . وأن هذا الحقل غير ذاك . في طبيعتهما أولا ، ثم في مدى التقدم الذي وصل إليه الإنسان بالفعل ثانيا . ثم فيما ينتظر تقدم الإنسان في كليهما ثالثا .

وأن « جهلنا مطبق » بالإنسان كما يقرر « العالم » الكبير . . .

\*\*\*

هذا الواقع « العلمى » من : « الجهل المطبق » بالإنسان - مع العلم النسبى بالمادة - نتيجة متوقعة ، وثمره طبيعية ، لحقيقة دور الإنسان فى الأرض ، وغاية وجوده الإنسانى فى الكون ، كما تبدو من خلال التصور الإسلامى .. والإسلام يرتب على هذه الحقيقة نتائجها ، فيطلق يد الإنسان فى عمارة الأرض ، واستخدام طاقاتها وخاماتها . والتحليل فيها والتركيب ، والتحوير فيها والتعديل .. بينما هو يضع لهذا الإنسان منهج حياته ، الذى يحكم هذه الحياة ، ولا يكل إليه هو وضع هذا المنهج ، لأنه مزود بطاقات معينة ليتحكم فى المادة عن علم - نسبى طبعا - بينما هو غير مزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه ، حتى يتحكم فى أمرها عن علم كما هو يتحكم فى المادة .

فالإنسان - فى التصور الإسلامى - هو سيد هذه الأرض ، بخلافته فيها عن الله ، وكل ما فيها مسخر له ، بقدره الله تعالى ، وقد أُوتى إمكان العلم بشؤونها ، هبة من الله سبحانه ، والاستمتاع بطبيعتها وجمالها ، نعمة منه خالصة .. وليست الأرض وحدها وكل ما فيها من أحياء وأشياء .. ولكن كذلك السماوات مهيأة لمساعدة الإنسان فى خلافته فى الأرض ، ومراعى فى بنائها دور الإنسان فى هذه الخلافة .. إنه أمر عظيم هائل .. ولكنه كذلك !

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات . وهو بكل شئ عليم . وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعلٌ فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني

بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت  
 العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم :  
 إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا  
 للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس واستكبر ، وكان من الكافرين .. «  
 ( البقرة ٢٩ - ٣٤ )

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، واعلمكم  
 تشكرون . وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه . إن فى ذلك لآيات  
 لقوم يتفكرون » ... ( الجاثية : ١٢ - ١٣ )

« والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين  
 تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشِقِّ الأنفُس ،  
 إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها ، وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون .  
 وعلى الله قصد السبيل . ومنها جائز . ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من  
 السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تُسِيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون  
 والنخيل والأغاب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم  
 الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم  
 يعقلون . وما ذرا لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو  
 الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر  
 فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تُمِيدَ بكم ، وأنهارا  
 وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » ... ( النحل : ٥ - ١٦ )

ولكن هذا الإنسان - فى التصور الإسلامى كما هو فى الحقيقة - على كل ما استودعه

الله من أمانة الخلافة الكبرى في هذا الملك العريض . وعلى كل ما سخر له من القوى والطاقات والأشياء والأحياء فيه ، وعلى كل ما أودعه هو من طاقات المعرفة والاستعداد لإدراك الجوانب اللازمة له في الخلافة من النواميس الكونية . . على كل هذا هو مخلوق ضعيف ، تغلبه شهواته أحيانا ، ويحكمه هواه أحيانا ، ويقعد به ضعفه أحيانا ، ويلزمه جهله بنفسه في كل حين . . ومن ثم لم يترك أمر نفسه ومنهجه في الحياة لشهواته وهواه وضعفه وجهله . . ولكن أكل الله عليه نعمته ورعايته ، فتولى عنه هذا الجانب ، الذي يعلم - سبحانه - أن الإنسان لا يقدر عليه قدرته على المادة ، ولا يعلم بمقتضياته علمه بقوانين المادة .

وأول ما ظهر من ضعفه وعجزه وخضوعه للإغراء والشهوات ، ما يصوره القرآن الكريم من استسلامه لإغواء الشيطان له بشهوة الخلد وشهوة الملك ، ونسيانه أنه عدوه الذي يتربص به ، ونسيانه كذلك تحذير الله له . . وهو تصوير للحقيقة الخالدة في الإنسان - مالم يعتصم بالله ومنهجه للحياة - وإلا فهو الشقاء والنكد في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فَنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا ، إلا إبليس أبى . فقلنا : يا آدم إن هذا عدوٌّ لك ولزوجك ، فلا يخرجكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضجى . فوسوس إليه الشيطان : قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، فبدت لهما سواتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، قال : اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى : فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني

أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أمتك آياتنا فنسيتهما ، وكذلك اليوم تنسى .  
وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ..  
( طه ١١٥ - ١٢٧ )

وتتواتر الإشارات إلى جهل الإنسان بأمر نفسه ومستقبله ومصيره ومآلات أفعاله ، مع  
تأثره بالشهوات وبالهوى وبالضعف بحيث لا يصلح - بجهالة هذه وضعفه وهواه - لأن  
يتولى وضع منهج حياته هو ، وإن كان مزوداً بالقدرة على استخدام المادة ؛ ومعرفة  
قوانينها اللازمة له في الخلافة . . في إطار المنهج الذي رسمه الله لحياته . .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . . . »  
( الروم : ٦ - ٧ )  
« ويسألونك عن الروح : قل : الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا  
قليلاً » ... ( الأسراء : ٨٥ )  
« وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأى أرض تموت ، إن الله  
عليم خبير » ... ( لقمان : ٣٤ )  
« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » ... ( النساء : ١٩ )  
« فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » ( النساء : ١٢ )  
« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ،  
والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ... ( البقرة : ٢١٦ )  
« لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » ... ( الطلاق : ١ )

« إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ...  
( النجم : ٢٣ )

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » ...  
( المؤمنون : ٧١ )

« إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً » ...  
( الماعرج : ١٩ )

وغير هذه الإشارات في القرآن كثير ... وهي تنجيء - غالباً - تعقيباً على التشريعات والتوجيهات التي يسنها الله للناس ، ونحبرهم معها أنهم هم لا يستطيعون أن يشرعوا لأنفسهم ؛ وليست لديهم القدرات والاستعدادات الضرورية لوضع منهج لحياتهم هم أنفسهم ، لأنهم يجهلون أنفسهم ، ويجهلون مآلات تصرفاتهم ورغباتهم ، ويخضعون لأهوائهم وشهواتهم . . . وكلها مؤثرات تجعل من الخطر على وجودهم ، وعلى خط سيرهم في الحياة ، أن يتولوا هم وضع شريعتهم وتخطيط منهج حياتهم الأصيل .

ف نجد هذه الإشارات في مثل هذه المناسبات .

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »  
... ( الجاثية : ١٨ )  
« كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ... ( البقرة : ٥٦ )  
« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن - إلا أن يأتين بفاحشة مبينة - وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .  
... ( النساء : ١٩ )

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .  
... ( الطلاق : ١ )

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك - إن كان له ولد - فإن لم يكن ولد وورثه أبواه فلائمه الثلث . فإن كان له إخوة ، فلائمه السدس - من بعد وصية يوصى بها أو دين - أبائكم وأبنائكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا .. فريضة من الله .. إن الله كان عليما حكما » . . ( النساء : ١١ )

كما نجد التنصيص القاطع والتشديد الحاسم - الذي لا يقبل الحال والجدال - على أنه لا يُسلم المسلم ، ولا يؤمن المؤمن ، حتى يجعل منهج الله للحياة منهجه ، وشرعية الله للحياة شريعته ، ولا يتخذ من عند نفسه لحياته منهجا ولا شريعة . وإلا ادعى لنفسه - بهذا - حق الألوهية فكفر بألوهية الله ، ورفض أفراد الله بالألوهية . وكفر معه كل من يقره على ادعاء حق الألوهية لنفسه ، بادعاء حق التشريع من دون الله واتخاذ منهج غير منهج الله للحياة .

وتتوالى النصوص القاطعة المؤكدة لهذه القاعدة الأساسية في الإسلام على هذا النحو :

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت<sup>(١)</sup> - وقد أمروا أن يكفروا به - ويريد الشيطان أن يضلهم

(١) الطاغوت كل سلطان لا يستند إلى سلطان الله ، وكل وضع لا يجعل شريعة الله أساسا للحياة .

ضلّالا بعيدا . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ؟ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظّمهم ، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . . . ( النساء : ٦٠ : ٦٥ )

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا - للذين هادوا - والربانيون والأحبار . بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون . ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا . . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له . . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . . . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . . . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . . . فاحكم بينهم بما أنزل الله . ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ، وليكن ليلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . . . وأن احكم

بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك .  
فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون ..  
أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ »  
... ( المائدة : ٤٤ - ٥٠ )

وفي هذا القدر كفاية لتقرير نظرية الإسلام في شأن « الإنسان » وتسليطه على عالم  
المادة ، وتسخير له ، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له في الخلافة ..  
وفي الوقت ذاته تقرير عجزه عن معرفة ذاته بمثل هذا الوضوح الذي يعرف به نواميس المادة  
- وإعفائه - تبعاً لهذا - من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه ؛ وعون الله له بوضع المنهج  
الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته في الأرض .. ثم .. إلزامه باتباع منهج الله هذا ،  
 وإخراجه من دائرة الإيمان والإسلام ، إذا هو لم يتخذ هذا المنهج ، أو إذا هو اتخذ لنفسه  
منه جانبا وابتدع هو الجانب الآخر : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله  
إليك » .. وإنذاره بسوء الحال في الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك أو بعضه : « ومن  
أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى » ... ( طه : ١٢٤ )  
« فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله » ... ( البقرة : ٢٧٩ ) ..  
وغيرها كثير .

ونعود بعد هذا الاستطراد في بيان وجهة النظر الإسلامية في حقيقة ما أعطى الإنسان  
من الاستعداد لمعرفة وما لم يعط ، ومقتضيات هذا وذاك في حياته .. نعود إلى عناصر  
المأساة التي تعانيها البشرية اليوم ، باتخاذها حضارة ومناهج حياة ، قائمة على ذلك « الجهل  
المطبق » بالإنسان - كما يقرر « العالم » الغربي الكبير - فنجد هذا الجهل المطبق  
بالإنسان - إلى جانب المعرفة الواسعة بالمادة - عنصرا رئيسيا في هذه المأساة .. لا لذاته ..

ولكن بسبب عدم الاعتبار به ، ثم المضي معه في إقامة مناهج للحياة البشرية ، في معزل عن هدى الله ، بل في عدااء وإصرار على تجنب هدى الله ، وفي نفرة منه كالتى يصورها القرآن الكريم في قوله تعالى : « فإلهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ؟ ! » ... ( المذثر : ٤٩ - ٥١ )

وهذا يقودنا إلى العنصر الثانى من عناصر هذه المأساة كما رتبناها فى كلمة الافتتاح . فلنحاول معالجة هذا العنصر الثانى ..

## تخبط واضطراب

هذا « الجهل المطبق » بالإنسان الذى يتحدث عنه الدكتور « ألكسيس كاريل » ، فى منتصف القرن العشرين ، لابد أنه كان أعمق وأشمل فيما قبل هذا القرن ، وقبل أن تبذل تلك الجهود الضخمة فى محاولة المعرفة ، وقبل أن يتجه البحث إلى « الإنسان » و إلى علوم الإنسان .

وهذا الجهل المطبق بالإنسان ، الذى ستبقى جوانب منه مهما بذل من الجهد ومهما تعددت حقول البحث ودرجاته ، نظرا للصعوبات الذاتية الكامنة فى تعقد موضوع الحياة من جهة ، وفى طبيعة عقولنا من جهة أخرى ..

هذا الجهل كان وما يزال يقتضى أن يظل الإنسان لاصقا بالله - سبحانه - قريبا منه ، ملتجئا إليه ، مهتديا بمنهجه الذى يضعه له عن علم وحكمة . وألا يفتر بفتوحات العقل والعلم فى عالم المادة ، ولا بمهارته فى الإبداع المادى - مهما بلغت قدرته ، ومهما فهم أنه أتى بالخوارق فى هذا المجال - فيدفعه هذا الغرور إلى تطبيق محاولاته فى عالم المادة على عالم الحياة . وبخاصة حياة الإنسان . وألا يفتنه هذا الغرور أيضاً ، فيجعله يحاول أن يضع لحياته مناهج مستقلة عن منهج الله . بله أن تكون معادية له ، شاردة عنه .

ولكن الذى وقع فى أوربا أولا ، ثم عمت بلوته الأرض كلها فيما بعد ، كان على الضد من هذا كله . ومن ثم كان التخبط ، وكانت الشقوة ، وكان خط الدمار الذى تنحدر فيه البشرية إلى الهاوية فى هذا الزمان ، وكانت هذه الأزمة الحادة التى يواجهها « وجود » الإنسان .

إن هذا الإخلاص العلمى الذى يدفع رجلا كالدكتور كاريل فى منتصف القرن العشرين أن يقول : « وواقع الأمر أن جهلنا مطبق » . . لم يكن له مجال فى الاندفاع العاتية التى اندفعت بها أوروبا فى الشرود عن كل توجيه دينى . ذلك أن ملابسات نكدية وقعت بين الكنيسة هناك والعلماء ، جعلت الناس يشردون من ظل الكنيسة - ومن كل ظل للدين - شرودا لا عقل فيه ولا وعى ، ولا مجال لتحكيم العقل والوعى ، ولا لسماع أية كلمة مخلصية للتفرقة بين الدين فى ذاته والكنيسة أولا ، ثم بين قدرة الإنسان على العمل فى عالم المادة وعجزه عن العمل فى منهج حياة الإنسان أخيرا .

وكان لهذا الشرود أسبابه المفهومة فى أوروبا . . وإليك عنصرا واحدا من عناصره : كانت مناهج البحث العلمى قد نشأت - فى ظل الإسلام - فى جامعات الأندلس والشرق كما يقول دوهرتج وبريفولت - وكانت أوروبا فى القرن الخامس عشر تنهل من هذه الجامعات ، وتعرف لأول مرة فى تاريخها شيئا عن هذه المناهج ، وشيئا عن المذهب التجريبي ( الذى عرف به فيما بعد روجر بيكون وفرنسيس بيكون ) والأول يعترف اعترافا صريحا بأنه اقتبس من « العالم » الإسلامى .

وفى هذا يقول دوهرتج :

« إن آراء روجر بيكون فى العلوم أصدق وأوضح من آراء سمييه المشهور ( فرنسيس بيكون ) . . ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله فى العلوم ؟ من الجامعات الإسلامية فى الأندلس . والقسم الخامس من كتابه : ( Opus Majus ) الذى خصصه للبحث فى البصريات ، هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وكتاب بيكون فى جملته شاهد ناطق على تأثره بابن حزم .

ويقول بريفولت فى كتابه : « بناء الإنسانية » ( Making of Humanity ) :

« إن روجر سيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى ، والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ، وليس لروجريكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن روجريكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبي ، هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبي فى عصره يكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس ، فى لطف ، على تحصيله فى ربوع أوروبا » ( ص ٢٠٢ )

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث . ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . . إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم ونحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية ( ص ٢٠٢ )

« إنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ماتكون وأهم ماتكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تكون مالمعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره . أى فى العلوم الطبيعية ، وفى روح البحث العلمى ( ص ١٩٠ )

« إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشف مدهشة لنظريات مبتكرة . بل يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود .

وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سوامم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني . ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الاسكندرية في عهدها الهليني . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، بطرق التجربة والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوربي ( ص ١٠٩ )

\*\*\*

وعندما انتقل المنهج الإسلامي الواقعي التجريبي إلى العقلية الأوربية ، اتجه الفكر الغربي إلى البحوث العلمية التجريبية . وبدأ البحث العلمي يكشف حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ، غير تلك المجموعة من الأوهام والأساطير والخرافات التي تتبناها الكنيسة وتعتبرها « حقائق مقدسة » وهي ليست من النصرانية في شيء ، إنما هي مجرد أفكار - غير علمية - كانت شائعة في تلك الأزمان - ولم يتنزل بها كتاب من عند الله - فتبنتها الكنيسة ، ودافعت عنها بوصفها جزءاً من « العقيدة » .

ولقد وقفت الكنيسة وقفة عنيدة في وجه هذا الاتجاه الجديد المنبثق من منبع الثقافة الإسلامية في الأندلس وفي الشرق كذلك . وقابلت نتائج بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين الذين استقوا من ذلك النبع ، بحفوة وعداء شديدين ، واستخدمت سلطانها ضدهم بوحشية كان من جرائرها ذلك الشرود من الكنيسة ، وضمنا من إلهها الذي تستطيل

باسمه زورا وبهتانا ، ومن كل ظل للدين وللتوجيه الديني . فقد كان كل اعتراف أو خضوع للدين معناه الاعتراف والخضوع لهذا الطغيان الكنسي الغشوم .

وعندئذ كان ذلك الفصام النكد بين الدين والعلم حتى مطالع القرن العشرين في أوروبا ، وظل اندفاع الناس - والعلماء خاصة - في شرودم الآبق عن الدين كله « كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة » .. ولم يهدأ هذا الشرود - شيئاً ما - إلا في مطالع القرن العشرين . حيث جعل بعضهم يقف ليلتقط أنفاسه اللاهثة ، وهو يحس بالخواء الروحي من آثار الرحلة الجاهدة ، في التيه المقفر ، نحو أربعة قرون ...

\*\*\*

وما بنا - في هذا البحث المجمل - أن نستعرض بالتفصيل كل الملابسات والظروف ، التي أحاطت بهذا الفصام النكد - في أوروبا - بين العلم والدين<sup>(١)</sup> ، ولا أن نصف بالتفصيل كذلك تلك الرحلة الشاردة الطويلة المجهدة في التيه المقفر ؛ ولا أن نصور بالتفصيل مدى اللاأواء والشقوة التي عانتها البشرية كلها ، وهي تشرد من الله ، وتتخلى عن كل ظل لمنهجها للحياة . وتعادى هذا المنهج ، وتبتدع لنفسها - بجهلها المطبق - مناهج من عند أنفسها طوال هذه القرون .

ولكننا سنحاول فقط اختيار بعض النماذج لتخطيط البشرية في التيه الطويل .

\*\*\*

إن الثمرة الطبيعية البديهية لجهلنا بحقيقة الإنسان - أو حتى لعدم إدراكنا كل جوانب هذه الحقيقة ، بفرض أننا وصلنا أو قد نصل إلى بعض جوانبها - هي أننا عاجزون عن وضع نظام شامل مضبوط صالح مصلح لحياته . وأن أى نظام نضعه له من عند أنفسنا - بعيداً عن منهج الله - لابد أن يعرض الحياة الإنسانية ، ويعرض الإنسان نفسه ، للعطب والدمار ، في صورة من صور العطب والدمار . .

(١) يراجع بتوسع في هذا الموضوع كتاب « المستقبل لهذا الدين » فصل « الفصام النكد » .

هذه بديهية .. ولكننا تؤثر أن نضعها في صورة عملية حسية واقعية .. لنفرض أننا كنا نجهل قوانين المادة ، جهلنا بقوانين الحياة - والحياة الإنسانية بصفة خاصة - ثم أردنا أن نتعامل - بجهلنا هذا الكلى أو الجزئى - مع المادة ؟ فما الذى كان يقع ؟ النتيجة معروفة .. يقع أن تلف المادة التى نتعامل معها - كليا أو جزئيا - إن لم تحططنا هذه المادة وتدمرنا .. ومثل هذا قد حدث تماما في الحياة البشرية ..

ولكن التلف والدمار حيث يقع في عالم المادة لا ينشأ آثارا يصعب تداركها ، ولا يحطم أشياء ثمينة غالية مثل « العنصر الإنسانى » و « الحياة الإنسانية » . ولا يتخلف منه ما يتخلف عن محاولتنا علاج شؤون الإنسانية في معزل عن خالقها العليم بحقيقتها ، الخبير بالنواميس التى تحكم حياتها ، واتصالاتها بهذا الكون الذى تعيش فيه . ولا مثل ذلك التخبط والشقاء والحيرة والقلق ، والتلف والفساد .. ثم التهديد بالدمار الأخير في نهاية الخط المشؤوم ..

إن هذه الظواهر النكدية تتجلى الآن في كل جوانب الحياة البشرية . وتبدو معها التضحيات الهائلة ، والمذابح الرهيبة ، والتقلبات العاتية ، والشقوة التى تسحق أئمن عناصر الكون .. « الإنسان » ..

وسنقف وقفات مجلّة أمام نماذج بعينها من تجارب البشرية الذاتية - في معزل عن هدى الله ومنهجه للحياة - في تاريخ البشرية من القديم إلى الحديث ، تشير إلى سائر النماذج . مذ كان استقصاؤها متعذرا . فضلا على أن طبيعة هذا البحث المجمل لا تحتمله :

هذه النماذج تتناول المسائل الرئيسية الثلاثة في حياة الإنسان :

١ - مسألة النظرة إلى الإنسان وحقيقة فطرته واستعداداته .

٢ - مسألة النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين .

٣ - مسألة النظم الاقتصادية والاجتماعية .

## الإنسان وفطرته واستعداداته

« الإنسان » كائن فذ في هذا الكون . فذ في طبيعته وتركيبه . وفذ في وظيفته وغاية وجوده . وفذ كذلك في مآله ومصيره ..

إنه مخلوق غير مكرر في جميع الخلائق التي عرفناها ، والتي يتحدثنا الله عنها كذلك ولا نراها . ومخلوق بقدر فلم يوجد هكذا مصادفة ولا جزافا . ومخلوق لغاية فلم يخلق عبثا ولا سدى . . وهذا واضح فيما نقلناه من الآيات القرآنية في الفصل السابق . وفي نظرة الإسلام إلى الإنسان يحملتها ..

وتميز الإنسان بخصائص لا توجد في عالم الأحياء هو الذي جعل « جوليان هكسلي » في « الدارونية الحديثة » يتراجع عن الكثير من « الدارونية القديمة » ، التي قررها « دارون » . وهو لا يتراجع عنها إلا مضطرا أمام ضغط الحقائق الواقعية التي تحتم هذا التراجع . إذ يعترف بأن الإنسان « حيوان خاص » وأن له « خصائص » لم تلاحظ في أى حيوان آخر . وأن لهذه الخصائص آثارا متفردة كذلك :

ولندعه هو يتكلم في فصل من كتابه : « الإنسان في العالم الحديث » بعنوان « تفرد الإنسان » .

« لقد تأرجح رأى الإنسان كالخطار ( البندول ) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه . تفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا وحينما آخر هوة صغيرة جدا .

« وبظهور نظرية « دارون » بدأ الخطار (البندول) يتأرجح عكسيا ، واعتبر الإنسان حيوانا مرة أخرى . . . ووصل الخطار شيئا فشيئا إلى أقصى مدى تأرجحه ، وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض « دارون » . فالإنسان « حيوان » كغيره من الحيوانات . ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية ، والمثل العليا ، لا تستحق تقديرا أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس ! والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري . ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية . ومن المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحمل محله القطة أو الفأر ! » ولم تصغر الهوة هنا بين الإنسان والحيوان ، نتيجة المبالغة في إعطاء الحيوان صفات الإنسانية ، وإنما نتيجة التقليل من الصفات الإنسانية في الإنسان . . . ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، سببه في الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي . « إن الخطار يتأرجح ثانية : وتتسع الهوة بين الإنسان والحيوان مرة أخرى . . . وبعد نظرية « دارون » لم يعد « الإنسان » يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا <sup>(١)</sup> ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفي حالات كثيرة لا مثيل له . وتحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد . . . وما هذا المقال إلا محاولة لعرض مركزه الحالي . . . » وأول خصائص الإنسان الفذة ، وأعظمها وضوحا ، قدرته على التفكير التصوري <sup>(٢)</sup> . . . ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة . وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة <sup>(٣)</sup> . . . ومن أهم نتائج تزايد التقاليد - أو إذا شئت من أهم مظاهره

(١) هذا مجرد رأي لهكسلي بوصفه « دارونيا » وهو طبعا يعز عليه أن يتراجع عن فروض دارون كلية أمام ضغط الحقائق الجديدة ، ولكنه يتراجع بالفعل وهو يتظاهر بأنه ثابت على أصول النظرية ! والإنسان يحتوي الكيان الحيواني من الناحية العضوية ولكنه ليس حيوانا بالمعنى الذي تقوله الدارونية . (٢) التخيل . (٣) الناشئة من رصيد التجارب الإنسانية .

الحقيقية - مايقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات . . وإن العدد والتقاليد  
لهى الخواص التى هيات للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . . وهذه  
السيادة « البيولوجية » - فى الوقت الحاضر - خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة .  
« . . وهكذا يضع علم الحياة « الإنسان » فى مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد  
المخلوقات . . كما تقول الأديان <sup>(١)</sup> ..

« ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التى  
لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى ، ومعظمها واضح معروف .

« والإنسان لا مثيل له أيضا كنوع مسيطر . إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى  
المسيطرة إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة ؛ وتجمعت فى أجناس وفصائل  
عديدة ، ومجموعات أكبر . أما الإنسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام . ولقد  
تم تنوع سلالات الإنسان فى حدود نوع واحد .

« وأخيرا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريقة تطوره .

« وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهى تفرد تاريخ تطوره . . ونحن الآن فى  
مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الإنسان فى تطوره . وأما خاصية الإنسان الجوهرية ،  
ككائن حى مسيطر فهى « التفكير المعنوى » .

« ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة عامة فى خصائص الإنسان من ناحية التطور  
والمقارنة . والآن نعود إليها ، ونبحث فيها وفى نتائجها بشئ من الإسهاب . . فأولا يجب

---

(١) بعد اعتراف هكسلى هكذا عاد ليسترد موقفه ، فقال : إن النظرية الدينية لم تكن صحيحة فى تفصيلها  
أو فى كثير مما تضمنته . ثم أرغمته الحقائق مرة أخرى فغتم هذا التراجع بقوله : « ولكن كان لها أساس  
جيولوجى متين » . وهكذا يتأرجح بين ضغط الحقائق وبين مقتضيات الإلحاد والمادية !

ألا يعزب عن بالنا ، أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما نظن عادة ..  
وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات .. ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة.  
وليست الثدييات بأفضل من ذلك .. بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى حتى  
عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ . ولا بد أن يكون سلوك الحيوانات عرقياً - أى  
أنه ثابت في حدود ضيقة - أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حراً نسبياً .. حراً في الأخذ  
والعطاء على حد سواء .. ولهذا الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال  
الفلسفة العقلية .. والإنسان أيضاً فريد في بعضها . فقد أدت هذه المرونة مثلاً إلى كون  
الإنسان هو الكائن الحى الوحيد ، الذى لا بد له أن يتعرض للصراع النفسى .. ومع ذلك  
فطبقاً للآراء الحديثة توجد في « الإنسان » أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهى التى  
يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع .

« وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان ، والتى يمكن تسميتها « نفسية » أكثر منها  
« بيولوجية » تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :  
« الأولى » قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية » التوحيد النسبى لعملياته العقلية ، بعكس انقسام العقل والسلوك  
عند الحيوان .

« الثالثة » وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية ،  
وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة  
الإنسان <sup>(١)</sup> . وهى بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية . ولنذكر منها العلوم الرياضية

(١) نحن ننقل نصوص هكسلى كما هى - بغض النظر عما يخالفه فيه في نشأة الإنسان ..

البحثة والمواهب الموسيقية ، والتقدير والإبداع الفنيين ، والدين ، والحب المثالي ..

« ولكن لا يكفي هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط . ففي الحقيقة أن معظم أوجه النشاط الإنساني وخواصه ، نتائج ثانوية لخواصه الأصلية . وكذلك فهي فذة من الناحية البيولوجية .. وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد ..

... « وبذلك يكون الإنسان فريداً في أحواله أكثر مما نظن الآن » <sup>(١)</sup> .

كذلك يقول العالم الأمريكي : « ا . كريسي موريسون » في كتابه : « Man does not stand alone » الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكي بعنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » :

« إن القائلين بنظرية التطور ( النشوء والارتقاء ) لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة ( الجينات ) .. ص ١٤٥

« لقد رأينا أن « الجينات » متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهي تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التي لكل شيء حي . وهي تتحكم تفصيلاً في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات ، تماماً كما تقرر الشكل والقشر والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان » ( ص ١٤٧ )

... « ويلاحظ أن جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها . حتى إن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك » .  
« والإنسان حيوان من رتبة الطليعة ، وتكوينه يشبه فصائل « السيميا » ( الأورانجتان والغوريلا والشمبانزي ) ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة برهاناً

(١) من كتاب « الإنسان في العالم الحديث » ترجمة حسن خطاب .. مقتطفات متفرقة .

على أننا من نسل أسلاف سيمائية (من القروود) أو أن تلك القروود هي ذرية منحطة للإنسان.  
ولا يمكن أحداً أن يزعم أن سمك القد (Cod) قد تطور من سمك الحساس (Hoddock) وإن يكن كلاهما يسكن المياه نفسها، ويأكل الطعام نفسه، ولهما عظام  
تكاثر تكون متشابهة... (ص ١٤٢)

« إن ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم  
من أن تتم عن طريق التطور المادي، ودون قصد ابتداعي.

» وإذا قبلت واقعية القصد، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً. ولكن  
ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار، لا فائدة منه. والعلم لا يعمل من يتولى  
إدارته. وكذلك لا يزعم أنه مادي.

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره،  
ولا يزال الإنسان في طور طفولته من وجهة الخلق، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه  
« بالروح » وهو يرقى في بطنه ليدرك هذه الهبة، ويشعر بغريزته بأنها خالدة.

» وإذا صح هذا التعليل - ويبدو أن المنطق الذي يسفده لا يمكن دحضه - فإن  
هذه الكرة الأرضية الصغيرة التي لنا، وربما غيرها كذلك، تكسب أهمية لم يحلم بها  
أحد من قبل. فعلى قدر ما نعلم قد تولد عن عالمنا الصغير هذا، أول جهاز مادي أضيف إليه  
قبس من نور الله. وهذا يرفع الإنسان من مرتبة الغريزة الحيوانية إلى درجة القدرة على  
التفكير، التي يمكن بها الآن أن يدرك عظمة الكون في اشتبا كانه، ويشعر شعوراً  
غامضاً بعظمة الله ماثلة في خلقه » (ص ١٨٧ - ١٨٨)

« إن أية ذرة أو جزيئة (Atom Molecule) لم يكن لها فكر قط، وأى اتحاد

للعناصر لم يتولد عنه رأى أبدا . وأى قانون طبيعى لم يستطع بناء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعا لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنتظم شيئا تطيعه جزيئات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحى ؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات ؟ أجل . وماذا أيضا ؟ شيء غير ملموس ، أعلى كثيرا من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء . ويختلف جدا عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو - فيما نعلم - ليست له قوانين تحكمه . إن « روح الإنسان هي سيدة مصيره » ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها . وقد أوجدت للإنسان قانونا للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ، ولا يحتاج إليه . فإذا سمي أحد ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة ، لا شيء سوى أنه لا يعرف كنهه بأنبوبة الاختبار ، فهو إنما يزعم زعما لا يقوم عليه برهان . . . إنه شيء موجود ، يظهر نفسه بأعماله ، ويتضحياته ، وبسيطرته على المادة ، وبالأخص بقدرته على رفع الإنسان المادي من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله . . . هذه هي خلاصة القصد الرباني . وفيها تفسير للاشتياق الكامن في نفس الإنسان ، للاتصال بأشياء أعلى من نفسه . وفيها كشف عن أساس حافزه الدينى . . . وهذا هو الدين . . . ( ص ٢٠١ - ٢٠٢ ) .

وتفرد الإنسان في هذا الكون بطبيعته وتركيبه ، وفي وظيفته وغاية وجوده ، وفي مآله ومصيره ، هو الذى يقرره التصور الإسلامى عن الإنسان في نصوصه الكثيرة ، فكلها تقرر أن هذا الإنسان ، خلق خلقه فذة خاصة مقصودة ، وعينت له وظيفة ، وجعلت لوجوده غاية ، وأنه كذلك مبتلى بالحياة مختبر فيها ، محاسب في النهاية على سلوكه فيها ، هذا السلوك الذى يقرر جزاءه ومصيره . . .

نجد هذا في قصة آدم :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ... الخ » ( البقرة : ٣٠ )

« وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من

( ص : ٧١ - ٧٢ )

روحي فقعوا له ساجدين »

« ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم

( الإسراء : ٧٠ )

على كثير من خلقنا تفضيلا ... »

( التين : ٤ )

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ... »

ونجده في نصوص شتى :

( الذاريات : ٥٦ )

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ... »

( الملك : ٢ )

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ... »

« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة

( طه : ١٢٣ - ١٢٤ )

ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ... »

\*\*\*

والإنسان كائن معقد شديد التعقيد . سواء في تركيبه العضوى ، أو تركيبه العقلى

والروحى، كما هو معقد في أوجه نشاطه المختلفة ، التى لا يعرف أحد حتى اليوم طبيعتها ،

ولا حقيقة الارتباطات بينها ، إذ كل ما أمكن هو ملاحظة ظواهرها وسطوحها .

وهذا التعقيد لا يبدو في كيان الإنسان ككل فحسب ، بل إنه ليتجلى كذلك في

في كل خلية حية من خلاياه التى لا تحصى ..

وإلى هذه اللحظة لم يكشف أحد سر تكوين الخلية .. وحتى لو تسنى كشف عناصر تكوينها المادى ، فإن عنصر الحياة الذى فيها مجهول الكنه والكيفية . ويبدو أنه سيظل كذلك . وليست هذه سوى الخطوة الأولى فى الطريق الطويل لمعرفة أسرار الخلية الحية .. إن هذه الخلية تتصرف كما لو كانت كائنا عاقلا رشيدا يدرك تماما وظيفته المقبلة ، كما يدرك دوره مع بقية الخلايا ، ويمضى فى طريقه مهتديا لا يضل أبدا ، لأداء دوره هذا ، فى دقة وإصابة لا يتمتع بهما العقل البشرى ذاته !

وعن هذه الأسرار ، وأسرار الارتباطات بين مركبات الكائن البشرى ووظائفه وأوجه نشاطه المختلفة يقول « الدكتور الكسيس كاريل » ماسبق أن صدرنا به الفصل الأول . وما نعيد هنا فقرات منه لضرورة وضعها تحت العين فى هذه اللحظة :

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محددة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة .. فنحن لا نعرف الآن الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

« كيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟  
« كيف تقرر الجينس ( ناقلات الوراثة ) الموجودة فى نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

« كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء نفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهى كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذى قدر لها أن تلعبه فى حياة المجموع . وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط معقد فى الوقت ذاته .

« ماهى طبيعة تكويننا النفسانى والفسىولوجى ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور .. ولكن العلاقات بين الشعور والمخ مازالت لغزا .

«إننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية . . إلى أى مدى تؤثر الإرادة فى الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟ على أى وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية ، التى يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة فى الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدوية ؟ الخ الخ » .

وهذا التعقيد فى تركيب الكائن الإنسانى ، وفى وظائفه وأوجه نشاطه ، هو الذى يتسق مع ضخامة وتشعب وظيفته الأساسية فى خلافة هذه الأرض ، كما أنه هو الذى يتسق مع طبيعة نشأته التى حدثنا الله عنها :

« وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ... ( ص : ٧١ - ٧٢ )

فالكينونة التى تنبثق ابتداء من الطين والنفخة من روح الله - على ما بينهما من آحاد وآفاق لا تحد - هى التى يتوقع فيها مثل هذا التعقيد الشديد ، الذى يستعصى على العقل البشرى ، لأنه فوقه وأكبر منه . على حين أنه يسير يسير على الله سبحانه :

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم » ... ( النجم : ٣٢ )

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » ( الملك : ١٤ )

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ... ( ق : ١٦ )

\*\*\*

والإنسان - بعد هذا وذلك - كائن يؤلف كل فرد فيه بذاته عالما فذا مفردا لا مثيل

له فى سائر أفرادة . على كل مايجمع أفراد الجنس كله من الخصائص « الإنسانية » المشتركة .. وهذا مما يزيد الأمر تعقيدا ، ويزيد دراسة « الإنسان » صعوبة ، بل تعذرا ، دون المعرفة الكاملة بالسمات المميزة لكل فرد على حدة - فى فرديته المتميزة - على فرض أنه أمكن الوصول - فى ملايين السنين - إلى معرفة كل التركيب العضوى والنفسى العام للجنس البشرى . .

وفى هذه الفردية يقول دكتور كاريل :

« إن الفردية جوهرية فى الإنسان . إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم ، إذ أنها تنفذ إلى كل كياننا . . . وهى تجعل « الذات » حدثا فريدا فى تاريخ العالم . . . إنها تطبع الجسم والشعور . كما تطبع كل مركب فى الكل بطابعها الخاص . وإن ظلت غير منظورة » ... ( ص ٢٨١ )

« يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم وإشارتهم وطريقتهم فى المشى ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة . ومع أن الزمن يحدث تغييرات كثيرة فى مظهر الأفراد ، إلا أنه يمكن دائما معرفة كل فرد - كما أثبت برتلون منذ أمد بعيد - بواسطة أبعاد أجزاء معينة من هيكله .. وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع بميزات قاطعة للفرد . ومن ثم فإن بصمات الأصابع هى التوقيع الحقيقى للإنسان » ... ( ص ٢٨٢ )

« وعلى كل حال فإن تكوين الجلد جانب واحد فقط من فردية الأنسجة » .

« وقد تظهر فردية الأنسجة نفسها بالطريقة التالية :

« طُعم سطح جرح بقطع من الجلد ، أخذ بعضها من المريض نفسه ، والبعض الآخر من صديق أو قريب . فلو حظ بعد أيام قليلة أن الجلد الذى أخذ من المريض نفسه قد

تماسك مع الجرح، وبدأ ينمو، في حين أن الجلد الذي أخذ من الأشخاص الآخرين أخذ في التراخي والانكماش . وسرعان ما عاش الأول ومات الثاني « ... (ص ٢٨٣ )

« إن القاعدة أن أنسجة أى شخص ترفض قبول أنسجة شخص آخر .. وحينما نخطط الأوعية ، ويمر الدم ثانية في كلية مطعنة ، فإن هذا العضو يفرز البول مباشرة ، ويكون تصرفه طبيعيا في بادئ الأمر . إلا أنه لا تكاد تمضى أسابيع قليلة حتى يظهر الزلال أولا ، ثم الدم في البول ، وسرعان ما نصاب الكلية بمرض أشبه بالتهاب يؤدي إلى ضمور الكلية سريعا .. ومع ذلك لو أن العضو المطعم أخذ من الحيوان نفسه لعاد إلى تأدية وظيفته بصفة دائمة . إذ من الواضح أن الأخلاط تكتشف في الأنسجة الغريبة ، اختلافات تركيبية معينة ، لا يمكن اكتشافها بأي اختبار آخر. إن الخلايا المحددة بالنسبة للأشخاص الذين تتبعهم . ولقد حالت هذه الخاصية حتى الآن دون التوسع في استعمال تطعيم أو ترقيع الأعضاء لأغراض علاجية » ... (ص ٢٨٣ )

« فمن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين الملايين من البشر الذين استوطنوا هذه الأرض ، كان تركيبهما الكيماوى متماثلا . وترتبط شخصية الأنسجة التي تدخل في تركيب الخلايا والأخلاط بطريقة مازالت غير معروفة حتى الآن . ومن ثم فإن فرديتنا تتأصل جذورها في أعماق ذاتنا .

« وتطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة . فهي موجودة في العمليات الفسيولوجية . كما هي موجودة في التركيب الكيماوى للأخلاط والخلايا . ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجى .. مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد ، وهجمات الميكروبات والفيروسات » ... (ص ٢٨٦ )

« تمتاز الفرديات العقلية والتركيبية والأخلاقية بطريقة غير معروفة . وتحمل كل منها للأخرى العلاقات نفسها التي تحملها وجوه النشاط الفسيولوجي ، والعمليات الخفية والوظائف العضوية .. إنها تهبنا وحدانيتها . وتجعل كل إنسان أن يكون نفسه ، وليس شخصا آخر .. » ( ص ٢٨٧ )

« كل فرد يدرك أنه فريد . وهذه الوحدانية حقيقية » .. ( ص ٢٨٩ )  
« إن فحص الفردية الفسيولوجية فحسا كاملا ، وقياس أجزائها المركبة غير ميسور حتى الآن ، كما أننا لا نستطيع تحديد طبيعتها بالدقة ، وكيف يختلف كل فرد عن الآخر . بل إننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه ، فضلا عن أننا أكثر عجزا عن اكتشاف إمكانياته » ... ( ص ٢٩٠ )

« وحقيقة الأمر أن السيكولوجيا لم تصبح بعد علما . لأن الفردية وإمكانياتها ليست قابلة للقياس حتى الآن » ... ( ص ٢٩١ )

\*\*\*

هذه الحقائق الأساسية الثلاثة : حقيقة أن الإنسان كائن فذ في هذا الكون . وحقيقة أن الإنسان كائن معقد شديد التعقيد . وحقيقة أن الإنسان يشتمل على عوالم متفردة عددها عدد أفرادهِ .

هذه الحقائق تقتضي منهجا للحياة الإنسانية يرعى تلك الاعتبارات كلها . يرعى تفرد « الإنسان » في طبيعته وتركيبه . وتفردهِ في وظيفة وغاية وجودهِ ، وتفردهِ في مآله ومصيره . كما يرعى تعقده الشديد وتنوع أوجه نشاطهِ وتعقد الارتباطات بينها . ثم يرعى « فرديته » هذه مع حياته « الجماعية » .

وبعد هذا كله يضمن له أن يزاول وجوه نشاطه كلها ، وفق طاقاته كلها . بحيث لا يسحق ولا يكبت ، كما لا يسرف ولا يفرط . وبحيث لا يدع طاقة تطفى على طاقة ، ولا وظيفة تطفى على وظيفة .. ثم - فى النهاية - يسمح لكل فرد بمزاولة فرديته الأصلية مع كونه عضوا فى جماعة ..

ولكن - نظرا لجهالتنا بالإنسان - فإن مناهج الحياة التى اتخذها البشر لأنفسهم لم تستطع - وهذا طبيعى - مراعاة هذه الاعتبارات المتشعبة المتشابكة المتفاوتة المتناسقة .. والمنهج الوحيد الذى راعى هذه الاعتبارات كلها كان هو المنهج الذى وضعه للإنسان خالقه ، العليم بتكوينه وفطرته ، الخبير بطاقاته ووظائفه ، القادر على أن يضع له المنهج الذى يحقق غاية وجوده ويحقق التوازن فى أوجه نشاطه ، يحقق فرديته وجماعيته كذلك ..

وما من شك أن الأمر من الدقة والخطورة والتشابك والتعقد بحيث يحتاج إلى علم إله ، وحكمة إله ، وعدل إله ، وأنه - من ثم - لا يصنعه إلا الله<sup>(١)</sup> ..

فلننظر الآن نظرة سريعة إلى قلب نظرة الإنسان لنفسه ، وتخبئه كذلك بنفسه ، حين استقل بأمر نفسه بعيدا عن هدى الله ، واتبع هواه ..

\*\*\*

فى الأساطير الإغريقية كان « الإنسان » ندا للآلهة . ينافرها السلطة والمعرفة ، وإن كانت هى تبطش به وتقسو عليه . ولكنه هو لا يستسلم ولا يذعن . وحتى فى حالة انتصارها عليه ، فإنه يستبقى فى نفسه السخط والإنكار والإصرار !

---

(١) عالج هذا الموضوع بتوسع فى فصل « حقيقة الإنسان » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » وفصل « نظام إنسانى » فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » .

فلما جاء العهد الروماني - ونبدأ به باعتباره الأساس الحقيقي للحضارة الأوربية القائمة - بهت ظل الآلهة ، وبقى الإنسان يعبد ذاته وشهواته . وهو على كل حال لم يكن يسمح للآلهة بالتدخل في تصريف حياته الأرضية . وإن كان يسمح لها بالتسكهن على السنة الكهان ؛ ويستبقها كعرف اجتماعي لا ضرر منه ، ويستمتع بمباهج الاحتفالات بمواسمها في طلاقة من كل قيد . على طريقة الرومان في المتاع .

ولما سيطرت النصرانية - كما صورتها الكنيسة - على الدولة الرومانية ، وُسم الإنسان بالخطيئة ، ونكس رأسه بالذل . وبدأ ذلك في التماثيل التي أنشئت في ظل هذه النظرة إلى الإنسان ، كما بدا في سواها من وسائل التعبير .

ومع أن النظرة النصرانية إلى الإنسان تحمل تكريم الله لهذا الجنس ، إلا أن خطيئة آدم - كما صورها الكنيسة - قد دمغت الجنس كله بالإثم . حتى جاء المخلص « ابن الإنسان » « المسيح » « الرب » « الابن » ... إلى آخره ... فكفر عن هذه الخطيئة . ولكن هذا لم يرفع جبين الإنسان ، فقد كان عليه أن يكفر بالذل والهوان والتقشف والعذاب طول حياته ، لكي يلحق بالمخلص ، ويتحد فيه ، وينال الغفران .

وكذلك اعتبرت ميوله الفطرية رجسا وذنبا ، وعلاقاته الجنسية قدرا ووسخا ، وشعوره بذاته إثما وخطيئة . . وكان من وراء هذه النظرة ما سنفصله بعد قليل من الرهبنة ، ورد الفعل للرهبنة في أوربا التي لم تستقر على حال .

ولما وقع رد الفعل ، وثار أوربا على الكنيسة ، وعلى التصورات الكنسية ، وعلى المفهومات الدينية كلها بالإجمال ، جذت مع الثورة نظرة جديدة للإنسان . وبالذات إلى « العقل » في الإنسان .

لقد جعل هذا « العقل » إلها في « عصر التنوير » في منتصف القرن الثامن عشر

الميلادى ، فهذا العالم الخارجى إنما هو من خلق العقل وصنعه . وللعقل حق السيطرة على كل جوانب الحياة ، والقطع فيها برأيه الذى يراه . والإنسان - من ثم - حر فى العمل حرية تامة ، لا يشوبها تحديد من غير الإنسان نفسه .. وبهذا انتهى عصر تدخل الدين فى الحياة .

ثم انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر . وابتدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة لهذا العقل وللإنسان معه . إذ جاءت « الفلسفة الوضعية » تعلن أن المادة هى الإله ! فهى التى تنشئ هذا العقل ، وهى التى تطبع فى حس الإنسان ما تراه ! بذلك تضاعف العقل ، وتضاعف معه « الإنسان » . لم يعد هذا الإنسان إله نفسه ، ولا إله شيء من الأشياء ، إنما أصبح من مخاليق « الطبيعة » ومن عبيد هذا « الإله » ! ثم جاء « دارون » بحيوانية الإنسان . حيث نشر كتابه : « أصل الأنواع » فى سنة ١٨٥٩ ، وكتابه : « أصل الإنسان » فى سنة ١٨٧١ .

وفقد الإنسان كل ما كان التصور الدينى قد أسبغه عليه من تكريم وتفرد وخصوصية . كما فقد كل ما كانت الفلسفة قد خلعتة عليه فى عصر التنوير من إيجابية واستقلال وسيطرة . وعاد حيوانا - ككل حيوان آخر - ولو أن له السيطرة اليوم ، فإن هذه السيطرة قد تؤول إلى قط أو فأر فى يوم من الأيام . كما يحكى جوليان هكسلى ! ثم تمت الضربة القاضية على يد « فرويد » من جانب ، و « كارل ماركس » من الجانب الآخر .. الأول يرد دوافع الإنسان كلها إلى الميول الجنسية ، ويصوره غارقا فى وحل الجنس إلى الأذقان .. والثانى يرد تطورات التاريخ كلها إلى الاقتصاد ، ويصور الإنسان مخلوقا ضئيلا سلبيا ، لاحول له ولا قوة أمام إله الاقتصاد . بل إله أداة الإنتاج !

\*\*\*

هذه النظرة إلى الإنسان ، التي لم تستقر قط ، ولم يعتدل بها الميزان في أوربا في يوم من الأيام ، كان لها أثرها في التخبط والاضطراب في الأنظمة والأوضاع ، وفي السلوك الفردي والسلوك العام . إذ أنه لا يمكن الفصل بين تصور الإنسان لنفسه ، وسلوكه الواقعي في الحياة .

وكذلك جاء التخبط في النظرة إلى سلوك الإنسان تجاه ميوله الفطرية ، واستعداداته وطاقاته ، وتجاه الأخلاق المرضية من المجتمع ، والتي تطبع سلوك الأفراد في شتى المجتمعات .

لقد ظلت أوربا تتراوح بين الإفراط والتفريط . بين الكبت والتهور . بين سحق الميول الفطرية والطاقات الطبيعية في الإنسان أو إطلاقها بغير عنان . . ولم تلتزم جادة الاعتدال أبدا في تاريخها الطويل . ولم يقع التوازن في تصوراتها ولا في حياتها تبعا لذلك في وقت من الأوقات . .

ونبدأ بملاحظة واقع أوربا - في هذا الجانب - منذ أيام الدولة الرومانية . .

يصور « درابر » الأمريكي في كتابه « الدين والعلم » حالة الدولة الرومانية قبيل دخولها في النصرانية هذه الصورة البارعة :

« ولما بلغت الدولة الرومانية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهديب إلى أسفل الدرجات . بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتارا . وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان ، إلا ليعث على شهوة الطعام .

ولم يكن اعتدالم إلا ليطول به عمر اللذة . كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة  
مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ،  
وغوان كاسيات عاريات ، غير متعفات ، تدل دلالة . . . ويزهو في نعيمهم حمامات باذخة  
وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون  
يصارعون حتى ينخر الواحد منهم صريعاً يتشبط في دمه . وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين  
دوخوا العالم ، أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة . لأنه بها يقدر الإنسان  
على أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين . وإذا غلب الإنسان في  
ساحة القتال بقوة ساعده ، فينثذ يمكن أن يصادر الأموال والأموال ، ويعين إيرادات  
الإقطاع . وأن رأس الدولة الرومانية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام رومة  
المدنى يشف عن أبهة الملك . ولكنه كان طلاء خداعاً ، كالذى نراه في حضارة اليونان  
في عهد انحطاطها <sup>(١)</sup> .

و يصف الأستاذ أبو الأعلى المودودي حالة المجتمع الرومانى في هذه الفترة يقول :  
« ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الرومانى إلى هذا الحد ،  
اندفع تيار من العرى والفواحش وجوح الشهوات . فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة  
والتهريج للمقوت والعرى المشين . وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور  
والدعارة والفحشاء . ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات . وانجذبت  
إليها نساء البيوتات . وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص في عهد  
القيصر « تانى بيرس » ( ١٤ - ٣٧ م ) لمنع نساء البيوتات من احتراف مهنة المومسات

---

(١) قلا عن كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبى الحسن الحسنى الندوى  
س ١٣٩ ، ١٤٠ من الطبعة الثانية .

وصناعتهم النافقة . ونالت مسرحية « فلورا Flora » حظوة عظيمة لدى الروم ، لكونها  
تحتوى على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء فى مكان واحد  
بمراى من الناس ومشهد .. أما سرد المقالات الخليعة ، والقصص الماجنة العارية فكان  
شفلا مرضيا مقبولا لا يتحرج منه أحد ، بل الأدب الذى كان يتلقاه الناس بالقبول والرضى  
هو الذى يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف . وهو الذى يتبين فيه أحوال الحب والعناق  
والتقبيل سافرة ، غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

ثم حدث أن استطاعت النصرانية - كما شكلها بولس - أن تمسك بزمام الدولة  
الرومانية ، وأن تولى الإمبراطور قسطنطين فى سنة ٣٠٥ ميلادية ، وأن تصبح لها الكلمة  
العليا فى الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف .. فما الذى حدث ؟

حدث ما يصوره درابر بقوله :

« دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المناققين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ،  
ومناصب عالية فى الدولة الرومانية بتظاهرم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ،  
ولم يخلصوا له يوما من الأيام . وكذلك كان قسطنطين . فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ،  
ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره ( ٣٣٧ م ) .

« إن الجماعة النصرانية .. وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين  
الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة كفاحها  
أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء ..

---

(١) كتاب « الحجاب » للسيد « أبو الأعلى المودودى » الترجمة العربية للأستاذ محمد كاظم السباقس ٢٤ ، ٢٣

هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى الإسلام على منافسه ( الوثنية ) قضاء باتا ونشر عقائده بغير غش .

« وإن هذا الإمبراطور الذى كان عبداً للعالم ، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوى عنده شيئاً ، رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين - النصراني والوثني - أن يوحدهما ، ويؤلف بينهما حتى إن النصراني الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعنت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة . وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها » <sup>(١)</sup> .

ولم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية أن تنزع الرومان من الحياة البهيمية الداعرة التى كانوا يزاولونها فى وثنياتهم .. عندئذ عمدت إلى الطرف المقابل .. الرهبانية .. الرهبانية التى تكبت الميول الفطرية والطاقات الطبيعية ، والوظيفة الأساسية للإنسان فى الأرض .. التعبير والخلافة .. ثم لا تغلح طبعاً فى قتل هذه القوى الضخمة العميقة الجذور فى الكينونة البشرية . ولكنها تغلح فقط فى إحالة الحياة إلى شد وجذب بين الدوافع والكوابح ، وإلى صراع أليم فى داخل الكيان البشرى ، وإلى دمار رهيب فى الحياة الاجتماعية والعمرانية ..

ويصف ليكى فى كتابه « تاريخ أخلاق أوروبا » ما وصلت إليه الرهبانية يقول :  
« زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم ، واستفحل أمرهم ، واسترعوا الأنظار ، وشفلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم ، وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان ، وفى القرن الرابع المسيحى كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ،  
(١) عن كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وكان الراهب « سرايين » يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر ..

وأفاض « ليكى » وغيره في وصف حالة الرهبان ؛ وبشاعة بعدها عن الفطرة الإنسانية ، والإيجابية الإنسانية ؛ والغلو في الهرب من طيبات الحياة ؛ ومكافحة نشاط الفطرة ، مما نكتفى فيه بتلخيص جيد واف للأستاذ أبى الحسن الندوى في كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » تحت عنوان « عجائب الرهبان » جاء فيه :

« ظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق إلى قرنين ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب . فحدثوا عن الراهب ماكار يوس (Macarius) أنه نام ستة أشهر في مستنقع ، ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد . وكان صاحبه الراهب « يوسيبس » (Eusebius) يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزع ، وقد عبد الراهب يوحنا (ST.Jhon) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة، ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة ، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة . وكان بعض الرهبان لا يكتسبون دائماً ، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار الفارحة ، والمقابر ، ويأكل كثير منهم الكلاً والحشيش . وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ، ويتأثمون من غسل الأعضاء . وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة ، وأوغلهم في النجاسات والدنس ، ويقول الراهب (اتيهنس) : إن الراهب (أنتوني) لم يقترب إنم غسل الرجلين طول عمره . وكان الراهب (أبراهام) لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة . وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلفها : وأسفاه لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً ، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات . وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون

الأطفال ، ويهربون إلى الصحراء والأديار ، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ، وبربونهم تربية رهبانية ، والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً ، والجمهور والدهاء يؤيدونهم ، ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم . وعرف كبار من الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب ، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت ، إذا رأين الراهب أمبروز (Ambrose) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً ، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس .

« وكان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال القوة والمروءة التي كانت تعد فضائل ، عادت فاستحالت عيوباً وورذائل . وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح ، والصراحة ، والسماحة ، والشجاعة والجرأة ، وهجروها . وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية ، وعم الكنود والقسوة على الأقارب . فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد . فيخلفون الأمهات ثكالي ، والأزواج أياى ، والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ، ويتوجهون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة ، لا يبالون ماتوا أو عاشوا . وحكى ( ليكى ) من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب .

« وكانوا يفرون من ظل النساء ، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادقتهن في الطريق والتحدث إليهن - ولو كن أمهات أو أزواجا وشقيقات - تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية . وروى ( ليكى ) من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً » <sup>(١)</sup> .

---

١ - ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين من ١٤٢-١٤٣ .

فماذا كانت ثمرة هذا الغلو في مجاعة الفطرة ، ومحاولة سحق الميول والاستعدادات  
الفطرية العميقة في الكينونة الإنسانية ؟

إنها لم تكن انتصارا لهذا الانحراف العائى ، فهذا مستحيل والفطرة أغلب . ولم  
تكن اعتدالا وتوازنا في جموح المادية الشهوانية الرومانية . وإنما كانت خليطا من هذا  
وذلك . يفسد الحياة كلها إفسادا .

كانت هذه الصورة التى يرسمها ( ليكى ) فى كتاب : « تاريخ الأخلاق فى أوربا » .  
« إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتيهما فى أخلاق الناس واجتماعهم ، وكانت الدعارة  
والفجور والإخلاد إلى الترف ، والتساقط على الشهوات ، والتملق فى مجالس الملوك وأندية  
الأغنياء والأمراء ، والمسابقة فى زخارف اللباس والحلى والزينة .. فى حدتها وشدها ..  
كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى ، والفجور الأقصى . وإن المدن  
التي ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع فى هذا العصر  
الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور حتى  
أصبح الناس لا يحتفلون بسوء الأحداث والفضيحة بين الناس . وكان الضمير الإنسانى ربما  
يخاف الدين ووعيده ، ولكنه أمن واطمأن لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع  
أعمال الإنسان .. لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب ، حتى فاق هذا العصر فى  
ذلك ، عصر القياصرة . ولكن الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة كانت تؤدى إلى انحطاط  
فى حرية الفكر والحماة القومية » .

\*\*\*

ثم كانت الطامة الكبرى ، يوم وقفت الكنيسة بما تبنته من آراء « علمية » خاطئة

وخرافات وأساطير شائعة ، واعتبرته جزءا من الدين والعقيدة . . يوم وقفت بهذا الغشاء في وجه المنهج العلمى التجريبي الذى تسرب من الجامعات الإسلامية إلى التلامذة الأوربيين ، وفي وجه النتائج « العلمية » الحقيقية التى أخذ هذا المنهج والتلامذة الأوربيون العلماء يصلون إليها . . وحرقت العلماء ، وطاردتهم ، وأنكرت مناهجهم ونتائج تجاربهم جميعا .

كانت هذه هى الطامة الكبرى . إذ جمع العلماء - ثم الجماهير - جموحا مضادا لجموح الكنيسة ، لا يقف عند حد الاعتدال أبدا . . .

وتلا ذلك النظريات والمذاهب التى أشرنا إليها ، جامعة فى تلويث الإنسان وتحقيره ، ومن ثم إباحة كل خساسات الشهوات الجامحة له ، بدون حدود ولا قيود .

وظلت الموجة العاتية فى مداها حتى اللحظة الحاضرة . وانساحت من أوربا إلى وليدتها أمريكا ، ثم انساحت منها إلى جنبات الأرض ، وما تزال ماضية فى طريقها . عاصفة مدمرة . تنفخ فيها أبواق الصحافة والسينما والمسرح والأدب والتصوير والنحت . . . وسائر الفنون ، وسائر أجهزة الإعلام والتوجيه . . ومن ورائها جميعا « بروتوكولات صهيون » التى تنص على أن هذا كله هدف أصيل للصهيونية العالمية ، لتدمير العالم - غير اليهودى - وإصابته بالانحلال ؛ ليسهل بذلك إخضاعه لحكم صهيون !

وما تزال البشرية تهوى إلى هاوية الدمار الأكيد . وعجلة الحياة جامعة مجنونة . تلهبها سياط الأجهزة المتعددة . حتى يأذن الله ، فتتسلم القيادة يد غير تلك اليد الرعناء المجنونة الشاردة المحمومة .

## المرأة وعلاقات الجنسين

إن التخبیط فى النظر إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين ، والأرجحة العنيفة بين الغلو والتفريط والتقلب من طرف إلى طرف ، والشد والجذب الذى لا يستقر على طريق وسط ، ولا يتسق مع فطرة ولا خلق .. إن هذا كله لا يقل عن نظيره فى النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته .

ولا يقل أثر الاضطراب والتخبیط فى النظرة إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين فى حياة المجتمع الإنسانى ، عن أثر التخبیط والاضطراب فى النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته ، فكلاهما ينبع من معين واحد : هو الجهل بحقيقة هذا الكائن بنوعيه ، ومن الهوى كذلك والضعف ؛ ثم الانقطاع - مع هذا الجهل والهوى والضعف - عن منهج الله وهداه .

ولإدراك أهمية هذه المسألة - مسألة التخبیط فى النظر إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين - لابد لنا هنا من استصحاب جميع المقدمات التى صدرنا بها الحديث عن « الإنسان وفطرته واستعداداته » .. فهى بنصها هناك تنطبق على الموضوع هنا . فلا بد أن نكون على ذكر منها ، وأن نعيد مراجعتها فى الصفحات السابقة ، قبل المضى فى موضوع المرأة<sup>(١)</sup> .

ثم نضيف إلى تلك المقدمات أن الحياة البشرية يستحيل أن تستقيم وتعتدل وتطمئن ، إذا كانت علاقة الجنسين غير مستقرة ، وإذا كانت تتأرجح - تبعاً للنظرة إلى المرأة - من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ؛ أو إذا كانت تستند إلى الجهل والضعف والهوى .

---

(١) من ص ٣٧ إلى ص ٤٩ .

إن هذه العلاقة هي التي يقوم عليها بناء العمران - هي وقاعدة النظام الاقتصادي وتوزيع الثروة - كما يقوم عليها بناء الأخلاق الإنسانية في مجالات واسعة متشابكة .. والنظرة إلى هذه العلاقة ، وإلى العلاقات الاقتصادية كذلك ، فرع عن النظرة إلى « الإنسان » التي أفضنا فيها بما تسمح به حدود هذا البحث المجل في الصفحات السابقة .. ولكنها تحتاج إلى مزيد من الإيضاح خاص بها لضخامة أهميتها .

لقد عني الإسلام - منهج الله للحياة الإنسانية - بتصحيح النظرة إلى المرأة ، وبإقامة العلاقة بين الجنسين على أساس من حقائق الفطرة ، وبتوضيح هذه العلاقة في كل فرع من فروعها النفسية والعملية ، بحيث لا تضرب ولا تتأرجح ، ولا يكتنفها الغموض في زاوية من زواياها ..

عني - أولا - ببيان وحدة الزوجين وتساويهما ( من الناحية الإنسانية ) ليقضى على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم أن المرأة جنس منحط بذاته عن جنس الرجل ..

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ... »  
( النساء : ١ )

وعني - ثانيا - ببيان وحدة الزوجين وتساويهما ( من ناحية علاقتهما بربهما وجزائهما عنده ) :

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض .. »  
( آل عمران : ١٩٥ )

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين

والصَادِقَات ، والصَابِرِينَ والصَابِرَات ، والخَاشِعِينَ والخَاشِعَات ، والمتَصَدِّقِينَ والمتَصَدِّقَات ،  
والصَّائِمِينَ والصَّائِمَات ، والحَافِظِينَ فروجهم والحَافِظَات ، والذَّاكِرِينَ الله كثيرا والذَّاكِرَات  
أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ... ( الاحزاب : ٣٥ )

وعنى - ثالثا - ببيان نوع الصلة بين شقى النفس الواحدة ، وأهداف هذه الصلة  
المتنوعة ، سواء ما يختص منها بالزوجين ، وما يختص منها بالمجتمع الإنسانى كله . .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة  
ورحمة » ... ( الروم : ٢١ )

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ... ( البقرة : ١٨٧ )

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ... ( البقرة : ٢٢٣ )

وعنى - رابعا - بتنظيم الصلة بين الجنسين فى كل أحوالها وأطوارها ، وما يشتركان  
فيه ، وما ينفرد به كل منهما - وفقا لتكوينه الفطرى ووظيفته فى المجتمع الإنسانى القائم  
عليهما كليهما ...

« ١ » فبين حقهما معا - فى أصل الملكية والكسب والميراث - مع خصوصية كل  
منهما فى بعض الفروع . وذلك للقضاء على جميع النظريات والأنظمة الخاطئة التى كانت  
تحرم المرأة حقها هذا :

« للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » ... ( النساء : ٣٢ )

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون

مما قل منه أو كثر ، نصيبا مفروضا » ... ( النساء : ٧ )

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » ... ( النساء : ١١ )

« ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك - إن كان له ولد - فإن لم يكن له ولد ،  
وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس » ... ( النساء : ١١ )

« وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما  
السدس » ... ( النساء : ١٢ )

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً  
مريئاً » ... ( النساء : ٤ )

« ب » وبين نظام قيام الأسرة ، ونظام التعامل بينهما في الأسرة ، وحقوق كل منهما  
على الآخر ، وحقوق الأطفال الناشئين ثمرة التقائهما كذلك .  
فالعلاقة تبدأ زواجا بمهر .

« وأحل لكم - ما وراء ذلك<sup>(١)</sup> - أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين - فما  
استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة . ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد  
الفريضة . إن الله كان عليماً حكيماً » . . ( النساء : ٢٢ )

والمرأة لا تورث كالمحتاج ولا تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها لتفتدى نفسها من أهل  
الزواج - ولا تمسك بعد الطلاق ضراراً حتى تفتدى نفسها من الزوج - كما كان الحال  
في الجاهلية :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض  
ما آتيتموهن - إلا أن يأتين بفاحشة مبينة - وعاضوهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى  
أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم

---

(١) أى فيما عدا المحرمات المذكورات في آيات سابقة .

إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثماً مبينا ؟ ! » ...

( النساء : ١٩ - ٢٠ )

وللرجل القوامة في البيت وعليه الإنفاق . وله مزاولة حقوق القوامة في المحافظة على كيان الأسرة من التفكك في مهب النزوات العارضة ، والمحافظة على العش الذي تتعلق به حقوق الأطفال ، وحقوق المجتمع البشري الذي يعتمد على مؤسسات الأسرة في نموه الاجتماعي ورفقه ..

«الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتي تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن الله كان عليا كبيرا . »

( النساء : ٣٤ )

فأما حين يخشى على مؤسسة الأسرة التصدع والانحيار فهناك إجراءات أخرى :

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها . إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا » ...

( النساء : ٣٥ )

وحين لا تجدى هذه المحاولة فهناك الطلاق إذن ليبحت كل منهما عن شريك يقيم معه مؤسسة الأسرة على أساس أقوى :

« وإن يترقا يغن الله كلاً من سعته ، وكان الله واسعا حكيما » ...

( النساء : ١٣٠ )

والطلاق شروطه وعدد مراته ونظام المراجعة فيه ونظام النفقة . . كل شيء مبين بوضوح . وليس هنا مكان تفصيله .

وللأطفال حقوقهم عند تفرق الوالدين :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين - لمن أراد أن يتم الرضاعة ؛ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . لا تكلف نفس إلا وسعها . لا تضارّ والدّة بولدها ؛ ولا مولود له بولده . وعلى الوارث مثل ذلك . فإن أرادا فصلا<sup>(١)</sup> عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما . وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم - إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف - واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير ... »  
( البقرة : ٢٣٣ )

\*\*\*

ولا نستطيع أن نمضى أكثر من هذا فى تفصيل النظرة إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين فى النهج الإلهى . فقد أفردنا له فصلا كبيرا فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » . فحسبنا أن نشير إلى أن هذا الأمر مبين بوضوح ودقة وتوكيد فى كل جزئية من جزئياته - وأنه كله مبنى على حقائق الفطرة فى تكوين الجنس الإنسانى أولا ، وفى تكوين كل من زوجيه ثانيا . وأن توزيع الاختصاصات بينهما مراعى فيه دقائق الفطرة ، التى يعلم بها بآرائها ، ولا يعلم الإنسان عنها إلا قليلا . فجهاالتنا بها مطبقة كجهاالتنا بالإنسان كله !

ولكن الذى ينبغى توكيده - فى اختصار - هو أن طبيعة نظرة الإسلام إلى الإنسان لا تسمح بأن تكون العلاقة بين الجنسين هى مجرد العلاقة الحيوانية القائمة بين أزواج الحيوان . فالإنسان مخلوق فذ فى تكوينه . فذ فى غاية وجوده . فذ فى مآله ومصيره . . . وهذه الخصوصية من شأنها أن تجعل لعلاقات الجنسين فيه غاية أبعاد وأشمل وأكبر من

---

(١) فصلا : فطاما للطفل .

غاية الالتقاء الحيوانى واللذة الحيوانية . غاية تتفق مع غاية وجوده كما تتفق مع طبيعة تكوينه ، التى ألحنا إليها فى الصفحات السابقة باختصار<sup>(١)</sup> .

وليس تفصيل المنهج الإلهى لعلاقة الجنسین موضوعنا هنا . إنما موضوعنا هو ذلك التخييط الذى عانت منه البشرية فى أطوارها المختلفة ، وهى تشرد عن الله ، وتتخذ لنفسها مناهج تقوم على الجهل والهوى والضعف والشهوة فى أطوارها المتلاحقة ؛ ولا تستقر على وضع معتدل هادئ مطمئن فى طور من الأطوار .

ونجتزئ بالتخييطات التى تداولت المجتمع الأوروبى منذ عهد الإمبراطورية الرومانية - التى على أساس حضارتها تقوم الحياة الأوربية المعاصرة - كما فعلنا فى الكلام عن النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته .



لقد تأرجحت النظرة إلى المرأة بين اعتبارها كائنًا منحطًا أشبه بالأشياء منه بالأحياء ! إلى اعتبارها شيطانًا رجيمًا يوسوس بالشر والخطيئة ! إلى اعتبارها سيدة المجتمع والحاكمة فى أقداره وأقدارها كميته ! إلى اعتبارها عاملة عليها أن تكافح وتشقى لتعيش .. ثم تحمل وتضع وتربي !

كما تأرجحت العلاقة بين الجنسین بين اعتبارها علاقة حيوان بحيوان . إلى اعتبارها دنسًا ورجسا من عمل الشيطان . إلى اعتبارها مرة أخرى علاقة حيوان بحيوان !

أما أن المرأة شطر النفس الإنسانية ، وأنها صانعة الجنس البشرى ، وأنها حارسة

---

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع كاف فى كتاب « الحجاب » للسيد أبى الأعلى المودودى . وكذلك فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

العش الذي تدرج فيه الطفولة .. وأنها الأمانة على أنفس عناصر هذا الوجود .. « الإنسان » .. وأن عملها في إتقان هذا العنصر لا يعدله عملها في إتقان أى عنصر آخر أو أى جهاز ... إلى آخر هذه الاعتبارات الفطرية الإنسانية الكريمة .. فهذا ما لم يعتدل به الميزان قط ، في تلك المناهج الجاهلية .

وأما أن العلاقة بين الجنسين أداة لخدمة النوع البشرى ، بإنشاء المحضن الآمن النظيف الواعى المتخصص ، لإنتاج صناعة البشر - وهى أئمن وأغلى صناعة فى هذه الأرض - واعتبار « الواجب » - لا اللذة - هو عماد هذه العلاقة ، لتعلق المستقبل البشرى كله بها ، وقيام التمدن البشرى عليها ... أما هذا الاعتبار فلم يعتدل به الميزان كذلك قط فى مناهج الجاهلية القديمة أو الحديثة .

وقد مضت الجاهلية الإغريقية القديمة على ذلك النمط ، ولا مجال للحديث عنها هنا خوف الإطالة .

« والذين تسنموا ذروة المجد والرقى فى العالم - بعد اليونانيين - هم الرومان . وفى هذه الأمة أيضا نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط . التى قد شاهدناها فى اليونان . فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلم الجمل ، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة ، كان الرجل رب الأسرة فى مجتمعهم ، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده . بل بلغ من سلطته فى هذا الشأن ، أن كان يجوز له حتى قتل زوجته فى بعض الأحيان <sup>(١)</sup> »

« ولما تخففت فيهم سورة الوحشية ، وتقدموا خطوات فى سبيل المدنية والحضارة ، تخففت القسوة فى تلك السلطة ، وجعلت الكفة تميل إلى الاستواء والاعتدال شيئا فشيئا وإن بقى نظام الأسرة القديم ثابتا على حاله .

---

(١) وبيع أولاده كذلك ...

« ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل ( بعد فترة من شبه الاعتدال والتوازن ) برقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة . وما زال هذا التبديل يطرأ على أنظمتهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة ، وعقد الزواج والطلاق ، إلى أن انقلب الأمر ظهرا لبطن ، وانعكست الحال رأسا على عقب ، فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدنى ( Civil Contract ) فحسب ، ينحصر بقاؤه ومضيه على رضى المتعاقدين . وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلا . ومنحت المرأة جميع حقوق الإرث والمالك ، وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطان عليها للأب ولا للزوج . ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشؤون معاشهن فحسب ، بل دخل في حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومى على مسير الأيام . فكن يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة ، مما يعود به أزواج المثرىات من النساء عبيدا هن في ميادين العمل والواقع ! ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلا جعله شيئا عاديا يلجأ إليه لأتفه الأسباب . . فهذا « سنيكا » الفيلسوف الرومانى الشهير ( ٤ ق . م - ٥٦ م ) يندب كثرة الطلاق ، ويشكو تفاقم خطبه بين بنى جلدته فيقول : « إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئا يندم عليه أو يستحي منه فى بلاد الرومان . وقد بلغ من كثرته وذبوع أمره ، أن جعلت النساء يعدون أعمارهن بأعداد أزواجهن !

« وكانت المرأة الواحدة تزوج رجلا بعد آخر ، وتمضى فى ذلك من غير حياء . وقد ذكر « مارشل » ( ٦٠ - ١٤٠ م ) عن امرأة تقلبت فى أحضان ثمانية أزواج فى خمس سنوات . وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس « جروم » ( ٣٤٠ - ٤٢٠ م ) عن امرأة تزوجت فى المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هى أيضا الحادية والعشرين لبعْلِها !

« ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غير

عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر ، أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنا شيئا عاديا .. فهذا « كاتو » ( Cato ) الذي أسندت إليه « الحسبة الخلقية » سنة ١٨٤ قبل الميلاد يجهر بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب . وذلك « شيشرون » ( Cisro ) المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ، بإطلاق العنان لهم في هذا الشأن . ولا يقتصر الأمر عليهما ، بل يأتي « ابكتيتس » ( Epictetus ) الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين ( Stoics ) فيقول لتلاميذه .. مرشدا ومعلما .. « تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج - ما استطعتم - ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحدا ، أو تؤنبوه ، إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته .. »<sup>(١)</sup>

ثم كان من ثمرة هذه الاتجاهات ماسبق أن أثبتناه<sup>(٢)</sup> ، من انحلال عرى المجتمع الروماني .. ثم دمار هذا المجتمع . وسقوط الدولة الرومانية .

\*\*\*

ومن هذه الإباحية المطلقة والشهوانية العارمة ، واعتبار اللذة غاية التقاء الجنسيتين التي لا غاية وراءها ...

من هذا الطرف القاصي انتقلت أوربا - وأرادت الكنيسة نقلها - إلى الطرف القاصي الآخر . إلى الرهبنة وإلى الفرار من المرأة ، وإلى مهاتها في الوقت ذاته وازدراؤها .

وقد سبق أن تحدثنا عن الرهبنة وسلطان الكنيسة في المجتمع الأوروبي واضطرابه وتخبطه ، حتى أفلتت أوربا منه شاردة إلى تيه الجاهلية الحديثة .

---

(١) عن كتاب ( الحجاب ) للأستاذ المودودي ص ٢٠-٢٣ .

(٢) ص ٥٣-٥٥ .

وتزيد الأمر هنا إيضاحاً فيما يتعلق بالنظرة إلى المرأة خاصة، وإلى العلاقة بين الجنسين في ظل التصور الكنسى ..

« فمن نظريتهم الأولية الأساسية في هذا الشأن ، أن المرأة ينبوع المعاصى ، وأصل السيئة والفجور ، وهى للرجل باب من أبواب جهنم ، من حيث هى مصدر تحريكه وحمله على الآثام . ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلا أنها امرأة ! وينبغى لها أن تستحى من حسننها وجمالها ، لأنه سلاح إبليس الذى لا يوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة ، وعليها أن تكفر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبداً ، لأنها هى التى قد أتت بما أتت من الرزء والشقاء للأرض وأهلها ..

« ودونك ماقاله. « ترتوليان » ( Tertulian ) أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها ، مبينا نظرية المسيحية<sup>(١)</sup> فى المرأة ..

« إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة . ناقضة لقانون الله . ومشوهة لصورة الله - أى الرجل »

« وكذلك يقول «. كراى سوستام » ( Chry Sostem ) الذى يعد من كبار أولياء الديانة المسيحية فى شأن المرأة :

« هى شر لا بد منه ، ووسوسة جبليّة ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطلى مموه !

« أما نظريتهم الثانية فى باب النساء ، فخلاصتها أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هى نجس فى نفسها يجب أن تتجنب - ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمى مشروع -

---

(١) الأولى أن نعبّر دائماً « بالنظرية الكنسية » لبعدها عن حقيقة النصرانية ، و « التصورات الكنسية » .

هذا التصور الرهبنى للأخلاق الذى كانت جذوره تكاد تتأصل فى أوربة من قبل ، بتأثير الفلسفة الإشرافية (Neo - Platonism) جاءت المسيحية فزادته شدة ، وبلغت به مفتاه . وذلك أن أصبحت حياة العزوبة مقياسا لسمو الأخلاق وعلو شأنها ؛ كما صارت الحياة العائلية علما على انحطاط الأخلاق ومهانة الطباع . وجعلوا يعدون العزوبة ، وتجنب الزواج من أمارات التقوى والورع وذكاء الأخلاق . وأصبح من المحتوم لمن يريد أن يعيش عيشة نزيهة ألا يتزوج أصلا ، أو لا يعاشر امرأته معاشرة الزوج لزوجته على الأقل ! وكذلك قرروا ووضعوا القوانين فى مؤتمراتهم الدينية المتعددة بأن لا يختل رجال الكنيسة بأزواجهم . وألا يتلاقى الرجل والمرأة منهم إلا بمرأى من الناس ، أو أمام رجلين من رجالهم على الأقل . . . وما ألوا جهدا فى أن يثبتوا فى قلوب الناس الشعور ببشاعة العلاقة الزوجية وتنجسها . . . وخذ لذلك مثالا أن كان شائعا بينهم ، أن الزوجين اللذين اتفق لهما أن يبيتا معا ليلة عيد من الأعياد ، لا يجوز لهما أن يعيدا ويشتركا مع القوم فى رسومهم ومباهجهم ، كأنى بهم يرون أنهما قد اقترفا إثما سلبهما حق المشاركة فى حفل دينى مقدس عندهم . . . وقد بلغ من تأثير هذا التصور الرهبنى ، أن تكدر صفو ما بين أفراد الأسرة والعائلة من الأواصر . وحتى ما بين الأم والولد منها . إذ أمسى كل قرابة وكل سبب ناتج عن عقد الزواج يعد إثما وشيئا نجسا !

« وهاتان النظريتان ما وضعتا من مكانة المرأة وحطتا من شأنها فى حقول الأخلاق والاجتماع فحسب ، بل كان من مفعولها القوى ، وتقوذا البالغ فى القوانين المعينة ، أن أصبحت الحياة الزوجية مبعث حرج وضيق للرجال والنساء بجانب ، وبجانب آخر انحطت منزلة للمرأة فى المجتمع فى كل ناحية من نواحي الحياة »<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

---

(١) كتاب الحجاب » للأستاذ المودودى ص ٢٥-٢٨

ثم انفلتت أوروبا من ربة الكنيسة وتصوراتها الكنسية ، وشردت عن الله وعن الدين كله ، ومضت في شرودها آبهة من كل ما يربطها بالله وبالدين : صحيحه وزائفه على السواء !

وفي خلال القرن التاسع عشر ظهر دارون وفرويد وكارل ماركس جميعا . وكانت إيماءاتهم وتوجيهاتهم كلها منصبة على تحقير الإنسان بشتى الطرق . مرة بحيوانيته المطلقة على يد دارون . ومرة بوحله الجنسي المطلق على يد فرويد . ومرة بسليته وضالة دوره تجاه المادة والعوامل الاقتصادية على يد كارل ماركس .

وكل هذه الإيماءات والتوجيهات كما تؤثر في النظرة إلى الإنسان ذاته ، تؤثر كذلك في النظرة إلى المرأة وإلى العلاقات بين الجنسين بصفة خاصة . وتحطم كل قوائم الأخلاق . وتطلق الجنسين حيوانين يتلمسان الشهوة واللذة لذاتهما . . حتى الهدف الحيوانى من حفظ النوع بالنسل لم يعد الأناسى في أوروبا وأمريكا ينظرون إليه إلا على أنه قيد يحد من حرية الاختلاط الجنسي ؛ ويحمل الذكر والأنثى تبعات لا يريدان أن يتحملاها ! فأصبح ههما معا هو التخلص من آثار اللذة بعد الالتقاء الجنسي ، بمنع الحمل ، أو بالإجهاض أو بواد الوليد . ( وسنتحدث عن هذا بشيء من التفصيل في فصل تال ) ..

المهم هنا أن نقرر جموح النظرة إلى المرأة ، بعد انفلات أوروبا من نير الكنيسة والتصورات الكنسية ، وشرودها - إبان هذا - عن الله وعن منهجه في الحياة ؛ والفصل بين اللذة الجنسية في علاقات الجنسين وأهدافها الإنسانية - ثم أهدافها الحيوانية أيضا !

« قالت لى إحدى الفتيات الأمريكيات في معهد المعلمين ( جريلى كولورادو ) في أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعية في أمريكا :

« إن مسألة العلاقات الجنسية مسألة بيولوجية بحتة ، وأنتم - الشرقيين - تعتقدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العنصر الأخلاقي فيها . فالحصان والفرس ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والديك والفرخة .. لا يفكر أحد منها في حكاية الأخلاق هذه ، وهو يزاول الاتصال الجنسي . ولذلك تمضي حياتها سهلة بسيطة مريحة !!!

« وكانت إحدى المدرسات في المعهد المركزي لتعليم اللغة الإنجليزية للغرباء بمعهد ويلسون للمعلمين بواشنطن ، تلقي على مجموعة من طلبة أمريكا اللاتينية - الذين يعدون في هذا المركز لتلقي الدراسة باللغة الإنجليزية - درسا في تقاليد المجتمع الأمريكي . وفي نهاية الدرس سألت طالبا من جواتيمالا عن ملاحظاته على المجتمع الأمريكي .. فقال لها : لقد لاحظت أن فتيات صغيرات في سن الرابعة عشرة وفتيانا صغارا في سن الخامسة عشرة يزاولون علاقات جنسية كاملة ... وهذا وقت مبكر جدا لمزاولة هذه العلاقات .. وكان ردها في حماسة :

« إن حياتنا على الأرض جد قصيرة . وليس هناك وقت لنضيجه أكثر من الرابعة عشرة .. »<sup>(١)</sup> .

وقد اخترت هذين النموذجين بالذات من مئات الأمثلة التي شاهدتها هناك . لأن صاحبتيهما مدرستان ، وتأثير المدرسة في نشر مثل هذه الإيحاءات أوسع من تأثير أى شخص آخر .

ومع هذه الإباحية المطلقة - أو بسبب هذه الإباحية المطلقة - لم تعد العلاقات الجنسية الطبيعية المباحة الرخيصة تشبع الميول الجنسية ، فانتشر الشذوذ الجنسي ، بالميل

---

(١) من كتاب « أمريكا التي رأيت » .

إلى الجنس الآخر سواء في عالم الفتيان، أو في عالم الفتيات، ويحتوى تقريراً « كنزى »  
عن « السلوك الجنسى عند الرجال، والسلوك الجنسى عند النساء »، إحصاءات دقيقة  
وعجيبة عن هذا الشذوذ.

وأذكر - بقدر ما يسمح الحياء وأدب الكتابة - مشاهدة شخصية في أحد  
فنادق واشنطن :

« كنت مع زميل مصرى نزل في هذا الفندق - بعد وصولنا إلى الولايات المتحدة  
الأمريكية بيومين اثنين - وقد أنس إلينا عامل المصعد الزنجى - لأننا أقرب إلى لونه،  
ولأننا لا نحتقر الملونين - فجعل يعرض علينا «خدماته» فى «الترفيه».. ويذكر «عينات»  
من هذا الترفيه . بما فيها « الشذوذات » المختلفة ..

« وفى أثناء العرض جعل يقص علينا أنه كثيراً ما يكون فى إحدى الحجرات «زوج»  
من الفتيان أو الفتيات . ثم يطلبان إليه أن يدخل إليهما زجاجة كوكاكولا .. دون  
تغيير لوضعهما عند دخوله !!!

« ولما بدا علينا الاشمئزاز والاستغراب ، قلنا له :

« أما ينجلان ؟

« أجاب بدوره متعجباً لاشمئزازنا وتعجبنا وسؤالنا عن الخجل :

« لماذا ؟ إنهما يرضيان ميولهما الخاصة ، ويمتعان أنفسهما ... وعلمت فيما بعد - من  
الملاحظات الكثيرة - أن المجتمع الأمريكى لا يستنكر على إنسان أن يرضى لذته بالشكل  
الذى يروق له . علماً أن ليس هناك إكراه .. ومن ثم فلا جريمة .. حتى فيما لا يزال  
القانون - على الورق - يعده جريمة .. »<sup>(١)</sup>

(١) من كتاب : « أمريكا التى رأيت »

والحال في أوروبا - وبخاصة في بلاد الشمال - لا يفترق كثيرا عن الحال في أمريكا .  
أما أثر هذا الانحلال في حياة المجتمع ، وفي تدمير « الإنسان » وتحطيم المجتمع الإنساني ،  
وفي تهديد الحضارة الإنسانية الراهنة بالانزواء ، كما انزوت حضارة الرومان القديمة ،  
فستحدث عنه في فصل تال .

\*\*\*

والكنيسة ؟ ما شأنها مع هذا الانحلال الجارف ؟ ورجال الدين ما شأنهم مع  
المجتمع الجديد ؟

إن كثيرين ممن لم يعيشوا بعض الوقت في أوروبا أو أمريكا - أو ممن عاشوا هناك  
ولكنهم لم يتعمقوا وراء الظواهر - كثيرا ما يندعهم كثرة الكنائس وانتشارها - وبخاصة  
في الولايات المتحدة - حيث تقوم في البلد الصغير الذي لا يتجاوز تعداده عشرة آلاف  
نسمة أكثر من عشرين كنيسة أحيانا . . وكثيرا ما يندعهم كثرة مظاهر الاحتفالات  
الدينية والمراسم والأعياد الدينية . . وكثيرا ما يندعهم كثرة الأحزاب التي تحمل أسماء  
« المسيحية » . . ثم كثيرا ما يندعهم ما يكتبه ويذيعه رجال الدين من كتب ومقالات  
وبحوث وإذاعات في موضوعات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية  
البحثة أحيانا . .

كثيرا ما يندعهم هذا كله فيحسبون أن للدين شأنًا في أوروبا وأمريكا . وأن لرجال  
الدين أثرًا في الحياة الاجتماعية هناك . . وهذه نظرة سطحية لا تدرك حقيقة ما هو  
واقع هناك .

إن الكنيسة - بعد أن ذاق مرارة الإهمال ، ووحشة البعد عن الحياة الاجتماعية ، بعد  
شرود الناس منها منذ عصر النهضة ، وخاصة منذ عصر التنوير ، ثم عصر الفلسفة الوضعية

المادية - قد عادت تلهث وراء المجتمع ، وتعلق بأهداب الناس . لا لتفود المجتمع ولا لتنقل الناس إلى الدين . ولكن لتجربى وراء المجتمع ، ولتتعلق شهوات الناس !  
عادت لتقيم فى الكنائس - بعد القداس - حفلات مختلطة للجنسين يشرب فيها النبيذ ، وتدور فيها حلقات الرقص ، وتعرض فيها ألعاب التسلية ، ويتخاصر فيها الفتيان والفتيات المخمورون ، ويلتذون نشوة المحاصرة والعناق حتى الفجر .. كل أولئك لاجتذاب الشبان والشواب إلى الكنيسة !

لقد جربت الكنيسة حين وقفت - بالباطل - فى وجه ميول الناس الفطرية ، كيف خرجوا عليها وداسوها وأهملوها . فعادت الآن تتجنب أن تقف - بالحق - فى وجه شهواتهم ونزواتهم ، فيدوسوا عليها ويهملوها !

لقد عادت أوربا إلى حياة الرومان القديمة التى تسمح للآلهة والأرباب أن تنطق بالرجز على السنة الكهان ، وأن تكون مواسمها مواسم بهجة ولذة ومتاع . . . وذلك دون أن يسمحوا لها بالتدخل فى شؤون حياتهم أو توجيهها وجهة تنافى اللذة والمتاع .  
ويخدع بعض الناس هنا فيحسبون أن للكنيسة نفوذا فى حياة الناس . وأن للدين هناك وجودا جديا يستحق الاحترام . ويحسبون أن « مرونة » الكنيسة و « ثقافتها » هناك هى التى ضمنت لها هذا النفوذ ، وضمنت للمسيحية أن تبقى بعد أعاصير عهد النهضة والتنوير والمادية .. وهو مجرد وهم لا يقوم على معرفة ماهو واقع هناك .

ولكن رجلا أوربيا مستنيرا مدركا مثل « ليوبولد فايس » الذى أسلم واهتدى وسمى نفسه « محمد أسد » لا يخدعه ما يخدع بعض الناس هنا . . لأنه عاش هناك . فيقرر فى كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » ما قررناه ، وما تضمنته مشاهداتنا الكثيرة فى أمريكا عن هذا الأمر بالذات . .

يقول :

« لقد سيطر على الغرب الحديث في أوجه نشاطه وجهوده اعتبارات من الانتفاع العملي ( المادى ) ومن التوسع الفعال فقط . وقد كان هدفه الذاتى إنما هو المعالجة والاكتشاف لكوامن الحياة ، من غير أن ينسب إلى تلك الحياة حقيقة أدبية فى ذاتها . أما قضية « معنى الحياة » والغاية منها ، فقد فقدت منذ زمن بعيد فى نظر الأوربي الحديث جميع أهميتها العملية . . » ( ص ٣٠ )

« إن الاتجاه الدينى مبنى دائماً على الاعتقاد بأن هناك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً ، وأنا - نحن البشر - مجبرون على أن نخضع أنفسنا لمقتضياته ، ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقرر الحاجة إلى خضوع ما إلا لمقتضيات اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو قومية . إن معبودها الحقيقى ليس من نوع روحانى . ولكنه « الرفاهية » . وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها عن طريق الرغبة فى القوة . . وكلا هذين موروث من المدنية الرومانية القديمة . . » ( ص ٣٣ )

« كانت الفكرة التى تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية الاجتياح بالقوة ، واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده . وفى سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومان فى عنفهم سوءاً ولا فى ظلمهم انحطاطاً . وإن « العدل الرومانى » الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم . ومن البين أن اتجاهاً كهذا ، كان ممكناً فقط على أساس إدراك مادى خالص للحياة وللحضارة . إدراك مادى هذب على التأكيد ذوق فكرى . ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية . إن الرومانيين - فى الحقيقة - لم يعرفوا الدين . وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . . لقد كانت أشباحاً سكنت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعى . ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية .

بل كان عليها أن تنطق بالرجز على السنة عرافيا - إذا سئلت مثل ذلك - ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية .

« تلك كانت التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . . ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة في أثناء تطورها . ثم إنها بطبيعة الحال قد بدلت وحورت في ذلك الإرث الثقافي الذي ورثته عن رومية في أكثر من ناحية واحدة . . ولكن الحقيقة الباقية أن كل ما هو اليوم حقيقى في الاستشراق الغربى للحياة والأخلاق ، يرجع إلى المدنية الرومانية . . وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعا بحتا ، ولا دينيا - لا على الافتراض بل على الحقيقة - فكذلك هو فى الغرب الحديث . . ومن غير أن يكون لدى الأوربى برهان على بطلان الدين المطلق ، ومن غير أن يسلم بالحاجة إلى مثل هذا البرهان ، ترى التفكير الأوربى الحديث - بينما هو متسامح فى الدين ، وأحيانا يؤكد أنه عرف اجتماعى - ترك على العموم ، الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبار العملية .

« إن المدنية الغربية لا تجحد الله البتة ، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله فى نظامها الفكرى الحالى . . فقد اصطنعت فضيلة من المعجز الفكرى فى الإنسان - أى من معجزه عن الإحاطة بمجموع الحياة - وهكذا يميل الأوربى الحديث ، إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التى ينتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . . وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك ، فإن العقل الأوربى يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتبار العملية » . ( ص ٣٦-٣٧ )

ويقرر الأستاذ أبو الحسن الندوى هذه الحقيقة باختصار في كتابه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » في قوله :-

« ديانة أوربا اليوم ، المادية ، لا النصرانية . فما لا شك فيه أن دين أوربا اليوم الذى يملك عليها القلب والمشاعر ، ويحكم على الروح هو « المادية » لا « النصرانية » كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوربية عن كثب ، لا عن كتب ، بل وعن كتب أيضا . ولم ينخدع بالمظاهر الدينية ، التى تزيد أبهة الدولة ، والتى يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوعاً .. ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس ، وحضورهم فى تقاليدها » ... ( ص ١٥٤ )

ولا بأس - بعد رسم هذه الصورة بقلم الكاتبين الواعين - أن أضيف إليها فقرة مما كتبه عن مشاهداتى الخاصة فى كتاب « أمريكا التى رأيت » <sup>(١)</sup> عن موضوع الكنيسة والمجتمع بالذات ، فى مسألة المرأة والعلاقات بين الجنسين . . فقد يزيد فى جلاء الوهم الذى يراود الزائرين العابرين ، أو المخدوعين فى المظاهر والعناوين ..

« ليس أكثر من الأمريكان تشييدا للكنائس ، حتى لقد أحصيت فى بلدة واحدة ، لا يزيد سكانها على عشرة آلاف ، أكثر من عشرين كنيسة ، وليس أكثر منهم ذهابا إلى الكنائس فى ليالات الأحد وأيامه ، وفى الأعياد العامة وأعياد القديسين المحليين . وهم أكثر من « الأولياء » عند عوام المسلمين !

« وبعد ذلك كله ليس هناك من هو أبعد من الأمريكى عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته . وليس أبعد من الدين عن تفكير الأمريكى وشعوره وسلوكه .

« وإذا كانت الكنيسة مكانا للعبادة فى العالم النصرانى - على تفاوت - فإنها فى أمريكا مكان لكل شيء إلا للعبادة . وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان

---

(١) تحت الطبع .

آخر معهد للهو والتسلية ، أو ما يسمونه بلغتهم « Fun • Good Time » ومعظم قصاها إنما يعدونها تقليداً اجتماعيا ضروريا ، ومكانا للقاء والأنس ، ولتمضية «وقت طيب» وليس هذا شعور الجمهور وحده ، ولكنه كذلك شعور سدة الكنيسة ورعاتها .

« ولمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسين - شبانا وشواب - ويجتهد راعى كل كنيسة أن يلحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن . وبخاصة أن هناك تنافسا كبيرا بين الكنائس المختلفة المذاهب والنحل . ولهذا تتسابق جميعا فى الإعلان عن نفسها بالنشرات المكتوبة ، وبالألوان الملونة على الأبواب والجدران، للفت الأنظار، وبتقديم البرامج اللذيذة للمشوقة، لجلب الجماهير ، بنفس الطريقة التى تتبعها المتاجر ، ودور العرض السينمائى والتمثيل . وليس هناك من بأس فى استخدام أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأبرعهن فى الغناء والرقص والترويح .. تماما كما تقف فتيات فى ثياب شديدة المعان والإثارة - أو فى « مايوه » - فى مداخل وطرق دور السينما لجذب الأنظار ..

« وهذه - مثلا - محتويات إعلان عن حفلة كنسية ، كانت ملصقة فى قاعة اجتماع الطلبة فى إحدى الكليات ، لجذب طلبة الكلية وطالباتها إلى كنيسة معينة فى المدينة الجامعية الصغيرة :

« يوم الأحد - أول أكتوبر سنة ١٩٥٠ - فى الساعة السادسة مساء ..

« عشاء خفيف . ألعاب سحرية . ألغاز . مسابقات . تسلية . رقص » .

« وليس فى هذا أية غرابة . لأن راعى الكنيسة لا يحس أن عمله يختلف فى شيء

عن عمل مدير المسرح ، أو مدير المتجر .. النجاح أولا وقبل كل شيء .. ولا تهم الوسيلة .. وهذا النجاح يعود عليه بنتائج الطيبة : المال ، والجاء ، فكلما كثر عدد الملتحقين بكنيسته

عظم دخله ، وزاد كذلك احترامه ونفوذه في بلده . لأن الأمريكي بطبيعته يؤخذ بالضخامة في الحجم والعدد . وهي مقياسه الأول في الشعور والتقدير ..

« كنت ليلة في إحدى الكنائس ببلدة ( جريلى ) بولاية ( كولورادو ) فقد كنت عضواً في ناديتها ، كما كنت عضواً في عدة نوادٍ كنسية في كل جهة عشت فيها ما بين واشنطن في الشرق وكاليفورنيا في الغرب . إذ كانت هذه ناحية هامة من نواحي المجتمع ، تستحق الدراسة عن كثب ، ومن « الباطن » لا من « الظاهر » وكنت معنياً بدراسة المجتمع الأمريكي ..

« وبعد أن انتهت « الخدمة الدينية » في الكنيسة ، واشترك في التراتيل فنية وفتيات من الأعضاء ، وأدى الآخرون الصلاة .. دلفنا من باب جانبي إلى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة « الصلاة » .. يصل بينهما باب .. وصعد « الأب » إلى مكتبه ، وأخذ كل فتى ييد فتاة ، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتي ، كانوا وكن يقومون بالترييل ويقمن » ..

« وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والأضواء الزرقاء ، وقليل من المصاييح البيضاء » .

« وحى الرقص على أنغام « الجرامفون » وصالت الساحة بالأقدام والسيقان ، والتفت الأذرع بالخصور والتفت الشفاه والصدور .. وكان الجو كله غراماً .. حين هبط الأب من مكتبه ، وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن في المكان ، وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا في الحلبة ، على أن ينهضوا فيشاركوا .. وكأنما لحظ أن المصاييح البيضاء تزيد نسبتها فتفسد ذلك الجو « الرومانسى » الحالم ، فراح في رشاقة الأمريكيانى وخفته ، يطفئها واحداً واحداً ، وهو يتحاشى أن يعطل حركة الرقص ، أو يصدم « زوجاً » من

الراقصين في الساحة .. وبدا المكان بالفعل أكثر « رومانسية » . ثم تقدم إلى « الجرامفون » ليختار أسطوانة للرقص ، تناسب ذلك الجو ، وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه .  
« واختار .. »

« اختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها « But, baby it is cold outside » ( ولكن الجو - يا صغيرتي - بارد في الخارج ) .. »

« وهي تتضمن حوارا بين فتى وفتاة عاثرين من مهرتهما . وقد احتجزها الفتى في داره ، وهي تدعوه أن يدعها تمضي لتعود إلى دارها ، فقد تأخر الليل ، وأما تنتظرها ، وكلما تذرعت بحجة أجابها بتلك « اللازمة » ( ولكن الجو يا صغيرتي بارد في الخارج ... )  
« وانتظر الأب ، حتى رأى خطوات « بناته وبنيه » تناسب على موسيقى تلك الأغنية المثيرة . وبدا راضيا مغتبطا . وغادر ساحة الرقص إلى داره ، تاركا لم ولن إتمام هذه السهرة اللذيذة .. البريئة .. على أن يسلم مفتاح الكنيسة في داره آخر « زوج » ينصرف من الكنيسة . فالانصراف يكون تباعا حسب مزاج كل زوج !!!

« ( وأب ) آخر يتحدث إلى صاحب لنا عراقى من الطلبة ، توثقت بينه وبينه عرى الصداقة ، فيسأله عن « ماري » - زميلته بالكلية - لم لا تحضر إلى الكنيسة الآن ؟ ويبدى أنه لا يعنيه أن تغيب فتيات الكنيسة جميعا وتحضر « ماري » . وحين يسأله الشاب عن سر هذه اللفتة ، يجيب « الأب » .. إنها جذابة . وإن معظم الشبان إنما يحضرون وراءها !

« ويحدثني شاب من شياطين الشبان العرب العراقيين الذين كانوا يدرسون في أمريكا .. وكنا نطلق عليه اسم « أبو الصاهية » - وما أدري إن كان ذلك يفضب الشاعر

القديم أو يرضيه ! - أن « صديقتة » كانت تنزع نفسها من بين أحضانه أحيانا ، لأنها ذاهبة للترتيل في الكنيسة .. وكانت إذا تأخرت لم تنج من إشارات « الأب » وتلميحاته ، إلى جريمة « أبي العتاهية » في احتجازها عن حضور الصلاة ! .. هذا إذا جاءت من غيره .. فأما إذا استطاعت أن تجره وراءها ، فلا لوم ولا توبيخ !

« ويقول لك هؤلاء « الآباء » : إننا لا نستطيع أن نجذب هذا الشباب إلا بهذه الوسائل . ولكن أحداً منهم لا يسأل نفسه : وما قيمة اجتذابهم إلى الكنيسة . . وهم يخوضون إليها مثل هذا الوحل ، ويقضون ساعاتهم فيه ؟ أهو الذهاب إلى الكنيسة هدف في ذاته ؟ أم آثاره التهذيبية في الشعور والسلوك ؟ من وجهة نظر « الآباء » التي أوضحتها فيما سلف - مجرد الذهاب إلى الكنيسة هو الهدف . وهو وضع لمن يعيش في أمريكا مفهوم !

« ولكني أعود إلى مصر ، فأجد من يتحدث أو يكتب عن الكنيسة في أمريكا . وعن سماحتها في مقابلة الخطأ والانحراف . وعن نشاطها في تطهير القلوب والأرواح . وعن استبقاء سلطان الدين بهذه الأساليب المتطورة ، التي لا تتشدد فيهرب منها الناس . « والله في خلقه شؤون »<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

وهكذا يتضح من هذا الاستعراض - الجمل على طوله - مدى التخبط والاضطراب في النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين ، في تاريخ أوربا . ومدى التأرجح بين الطرفين المتباعدين . هذا التأرجح الذي لم يعتدل به الميزان قط ، لوضع كل شطر من شطري النفس

---

(١) من كتاب « أمريكا التي رأيت »

الواحدة في مكانه الحقيقي ؛ ولإدراك دور المرأة الحقيقي ، ومكانها الطبيعي . والذي شقى به الجنسان ، وشقيت به البشرية - وما تزال تشقى - حتى يأذن الله ، فتسلم زمام الحضارة البشرية يد أمينة ، موصولة بالله ومنهجه للحياة ..

## النظم الاجتماعية والاقتصادية

كما وقع التخبط ، والتطرف ، والهزات العنيفة ، والتأرجح بين الطرفين الجامحين دائماً ، وعدم اعتدال الميزان في الوسط العادل المتناسق .. كما وقع هذا كله في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته . وفي النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين .. كذلك وقع في النظم الاقتصادية والاجتماعية سواء بسواء .

وكان هذا طبيعياً ومنتظراً من نظم تقوم على تلك النظرة الخاطئة إلى الإنسان ، وعلى الجهل المطبق بحقيقة الإنسان . فمال تصح النظرة إلى الإنسان ذاته ، وحقيقة فطرته واستعداداته ، وغاية وجوده وحدود سلطانه ... الخ ما لم تصح النظرة إلى هذا كله ، فلا مفر من التخبط والأرجحة في كل ارتباطاته الأخرى . وبخاصة ارتباطاته الاقتصادية والاجتماعية .. فهذه فرع عن تلك وأثر من آثارها .

وهذا الذي نقرره في الفقرة السابقة هو مفرق الطرق بين التفسير الإنساني للتاريخ - وهو الذي يتفق مع التصور الإسلامى - والتفسير المادى والاقتصادى للتاريخ . وهو الذى تقوم عليه الماركسية .

ولا عبرة بما يلح فيه الماركسيون من أن أدوات الإنتاج هي التى تنشئ نوع الارتباطات فى المجتمع ، وأن هذه الارتباطات - وحدها - هي التى تنشئ النظرة إلى

« الإنسان » وإلى « الأخلاق » وإلى « الدين » وإلى « المبادئ والقيم » والآداب والعادات والتقاليد » وإلى « الحكم » وإلى « النظم » وإلى « الأوضاع » وإلى سائر الارتباطات في حياة الإنسان .

لا عبرة بهذا الإلحاح في أفراد العوامل الاقتصادية - وحدها - بتفسير كل شيء في حياة الكائن الإنساني ، والمجتمع الإنساني ، واعتبارها هي - وحدها - إلها قادرا على التغيير والتبديل ، قاهرا لا بد للإنسان إزاءه من الخضوع « للحتمية » والتسليم .

لا عبرة بهذا الإلحاح ، فإن هو إلا لوثة من لوثات « الماركسية » الكثيرة . وقد تهللت « الماركسية » على كل حال - « كنظرية » - تحت مطارق الواقع ، ودوافع الفطرة ، وحقائق الدوافع البشرية الأصيلة ، واحتاجت إلى التعديلات المتوالية ، على يد لينين وستالين وخروشوف . وهم يسمونها « تعديلات » وهي في الواقع « عدولات » عن أسس النظرية مع الاحتفاظ بالشارة والإطار . وهم يعلنون هذه العدولات ، بأن الماركسية مذهب متطور . . على حين أن ليس هناك مذهب ، ولا نظرية ، ولا دين ، يحتشد بالاحتميات احتشاد الماركسية الأولى ، كما وضعها ماركس وإنجلز . فدعوى « التطور » بعد الماركسية ، دعوى جديدة جدا ، لمواجهة مطارق الفطرة ، ومطارق الواقع ، وجهاد « الذات الإنسانية » في روسيا والصين ، وسائر البلاد التي أخضعها الشيوعية ، لإثبات وجودها على الرغم من الثقل الساحق للنظام البوليسي الرعيب .

ونحن لا نناقش « الماركسية » هنا . ولكننا نستعرض فقط بعض مظاهر التخبط والأرجحة في النظم الاقتصادية والاجتماعية التي قامت مستندة إلى الجهالة المطلقة بحقيقة الإنسان ونظرته وميوله واستعداداته وحاجاته الحقيقية . بسبب أنها قامت بمعزل عن منهج

الله العليم بحقيقة هذا الإنسان ، وبما يصلح له وما يصلحه من النظم والأوضاع .  
لقد سارت الأوضاع تتأرجح بين التطرف هنا والتطرف هناك على نفس الطريقة  
التي سارت بها في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته ، والنظرة إلى المرأة وعلاقات  
الجنسين . بل أشد تأرجحاً وأكثر ضحايًا ، وأشدّ بلاءً . منذ كان الاقتصاد وتوزيع  
السلطات في المجتمع مجالاً لصراع أشدّ ، يبلغ حد الوحشية الرعبية في كثير من الأحيان .  
ومنذ كانت معالجة الخطأ الجامح تأتي دائماً بخطأ آخر جامع في الجانب الآخر . ولا يعتدل  
بها الميزان قط في يد الإنسان ، الجاهل بنفسه ومقدراته وحاجاته الحقيقية ، الخاضع لشهواته  
وضغفه وهواه ، الشارد في الوقت ذاته عن الله ومنهجه للحياة .

والماركسية والتفسيرات المادية عموماً تخرج الإنسان من حسابها وهي تسجل  
هذه التقلبات والأطوار . والماركسية بصفة خاصة تقيم الاقتصاد - وحده - إلهاً  
متفرداً متصرفاً في أقدار « الإنسان » بعيداً عن إرادة الإنسان وفطرته واستعداداته  
وطاقاته . فهي دائماً خاضعة لجمعية العوامل الاقتصادية ، أو ناشئة من هذه  
العوامل الاقتصادية .

وهي تعزو هذه التقلبات والأطوار إلى تغير أدوات الإنتاج ، فإن تغير هذه الأدوات  
« يحتم » تغير الارتباطات في المجتمع ، ومن ثم يوجد « التناقض » بين الوضع القائم ، وما  
يتطلبه تغير أدوات الإنتاج من تغير في الروابط الاجتماعية والاقتصادية ، فتقع الثورة  
أو الانقلاب لإنشاء وضع جديد ملائم لتغير أدوات الإنتاج . والإنسان لا دور له في هذا  
كله . . ولو كان هو الذي يغير أدوات الإنتاج بيده أو بفكره . فهذا ما يسكت عنه  
ماركس . وكأن أدوات الإنتاج هذه إله آخر . ولكنه إله يغير نفسه ! فتنشأ « حتمية »  
التغير في الأوضاع الاجتماعية تبعاً للتغير في ذات الإله !

ما علينا .. فنحن كما قلنا لا نناقش الماركسية هنا ، ولكن نستعرض فقط الأرجحة في حياة الناس الشاردين من الله . غير أننا سنناقش فقط هذه « الحتمية » والأسباب الواهنة التي قامت عليها في الفلسفة الماركسية .

إن الماركسيين يعززون التقلبات والأطوار كلها إلى تغير أدوات الإنتاج . ومن ثم تغير الأوضاع الاجتماعية . وهم يعدون هذه الأطوار إذن « حتمية » في خط سير التاريخ .. فعلام يستندون ؟

إنهم يستندون - كما يقول كارل ماركس - إلى الواقع التاريخي .

وعلى الرغم مما في ادعاء فرد واحد - أو حتى مجموعة من الأفراد - أنهم يحيطون علما بكل وقائع التاريخ ، وبكل العوامل المستترة والظاهرة في هذا التاريخ ، وبكل دوافع « الإنسان » في جميع الأجيال والأزمان ، لا في الماضي فقط ، ولكن في الحاضر وفي المستقبل كذلك - بينما العلماء المتخصصون في القرن العشرين يعترفون بجهالتهم المطلقة بالإنسان ، وبأنهم يقفون منه على عتبات المجهول .. على الرغم مما في هذا الادعاء العريض من « خرافة » لا يجوز أن يقوم عليها « رأى أو فرض » ، فضلا على أن يقوم عليها « مذهب » ! فإن الماركسية قد نبذت كل رأى آخر يمكن أن يخالف هذا المذهب . وقامت بالمذابح الرهيبة للملايين من البشر لمجرد أن يكون لهم رأى آخر في تاريخ الإنسان . أى نفس ما فعلت « الكنيسة » شيئا منه ، وهى تحرق العلماء الذين يرون رأيا آخر في « خرافاتها المقدسة » .. وهى لا ترتفع كثيرا على « الخرافات الماركسية المقدسة » .. « العلمية ! » .. في هذا الزمان !

ولكن الماركسية - « المذهب العلمى » - تريح نفسها من متاعب « الدراسة العلمية »

لكل عوامل التاريخ ، ولكل دوافع الإنسان .. فهى تختار عنصرا واحدا من عناصر الحياة - عنصر الاقتصاد - وتعتبره - كما قلنا - إلها ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ، ولا حيلة للإنسان فى « حتمية » ما يراه !

غير أنها لا تدرس آثار قدرة هذا الإله فى تاريخ العالم .. إنما تدرسه فى تاريخ أوربا . ثم تعم حتمية إرادته على الأرض كلها .. وهذه كذلك إحدى تخريفات « المذهب العلمى » القائم على الاستقصاء !

ومن ثم يعتبر الماركسيون أن تاريخ أوربا هو تاريخ العالم ، وأن إله الاقتصاد الذى حكم تاريخ أوربا هو الذى يحكم تاريخ العالم . ويقررون حتمية تلك الأطوار فى تاريخ العالم استنادا إلى ما وقع فى تاريخ أوربا .. من وجهة نظرهم ، التى تنحى كل العوامل فى تاريخ البشر ، لتقرر وحدانية إله الاقتصاد بالعمل !

وهم - طبعا - لا يمكن أن يخطر على بالهم أنه على فرض أن هذا التاريخ صحيح ، وعلى فرض أنه تاريخ العالم لا تاريخ أوربا .. فإن هذه الأطوار تأرجحت هكذا بين طرفى الغلو دائما ، ولم يعتدل بها الميزان أبدا ، ووجدت فيها « المتناقضات » المتصارعة ، نظرا إلى أنها قامت على مناهج من صنع الإنسان ، الجاهل بنفسه ، وبمخارجاته الحقيقية ، المتقل فى أحكامه واختياراته وتصرفاته بآثار هذا الجهل ، وبالضعف البشرى ، والهوى المتقلب والشهوات العمياء ... وأنه فى الوقت ذاته لم يستعن بمنهج الله ليضبط هذه الشهوات ، وهذا الهوى ، وهذا الضعف ، وهذا الجهل ، بضابط ثابت ، يخفف على الأقل من هذه الاندفاعات البشرية على غير هدى فى كل اتجاه !

لا يمكن - طبعا - أن يخطر هذا على بالهم . وهم يقيمون فلسفتهم الاقتصادية ابتداء

على أساس المذهب المادى الذى ينكر أن يكون لهذا الكون إله . وهم يسخرون أشد السخرية ممن يعتقدون بوجود الله ...

ونحن الذين عصمنا الله من الشرود من كنف الله - لأنه لم تكن لنا كنيسة تطاردنا باسمه ، فنشرد منها ومن إلهها ودينها، ونمضى كالذين يقول الله عنهم : « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » !

ونحن الذين عصمنا الله من أن نكل إلى العلم الإنسانى - أو بتعبير العلماء إلى الجهل الإنسانى ! - مهمة وضع المناهج الأساسية للحياة الإنسانية ، بل أمدنا بقواعد المنهج المنير ، القائم على العلم المطلق بفطرة الإنسان واستعداداته وطاقاته وحاجاته الحقيقية .

نحن - وهذا فضل الله علينا - جديرون أن ننظر إلى المسألة نظرة أخرى . وأن نأخذ الأمور بالرفق والهدوء . والنظر « العلمى » الصحيح ، الذى يتقصى كل جوانب المسألة ، ولا ينهش منها نهشة ويجرى شاردة من الكنيسة ، وإله الكنيسة ، ودين الكنيسة ، وتصورات الكنيسة ! .

وعندئذ ندرك مظاهر التخبط والتأرجح ، والأسباب الحقيقية الكامنة وراءها . وتكون لنا نظرتنا المستقلة ، ونظرياتنا المستقلة ، ومناهجنا المستقلة القائمة على دراستنا المستقلة ، المستمدة من منهج الله وهداه .. ومن ثم نرى أن هناك اختلافا جذريا أصيلا بين منهجنا ، وكل المناهج السائدة ، وبين مذهبنا وكل المذاهب المعروفة ، وبين طبيعة نظرتنا لواقع الحياة البشرية وللتاريخ البشرى وكل النظرات القائمة ؛ وبين تفسيرنا للحياة والتاريخ وكل تفسير آخر . وبين كل عنوان اتخذته الأنظمة الاجتماعية البشرية وعنوان نظامنا « الإسلامى » .

وليس هذا البحث المجلد مجال هذه الدراسة ، فضلا على أنها فى حاجة إلى كفايات

منوعة ، تتجمع في تنظيم واحد ، وتستوفي الزمن اللازم لهذه الدراسة الضخمة ، في ظروف وأوضاع جادة في الأخذ بمنهج الله . وأمام عزيمة حقيقية لتنفيذ هذا المنهج . ومن ثم تتجه إلى هذه الدراسة لتطبيق نتائجها في عالم الواقع ودنيا التعامل لا مجرد البحث والدراسة والثقافة ! فالمنهج الإسلامي في التفكير والنظر منهج واقعي جاد ، لا يسمح لأصحابه أن يبذلوا جهودهم لمجرد البحث والدراسة والثقافة ؛ إنما هم يبذلونها لتطبيق ، ولتصبح واقعا من الواقع ، وذلك حين يكون هناك اتجاه جاد لتحكيم النظام الإسلامي كله في الحياة !

إنما المجال في هذا البحث المجمل مقصور على استعراض بعض التخططات في الحياة الأوربية - في هذا الجانب - هذه الحياة التي طفت - مع الأسف - على رقعة الأرض كلها في هذا الزمان . والتي أصبحت مفهوماتها وتفسيراتها وشاراتها وعنواناتها ومصطلحاتها هي التي تفرغ رقعة الأرض كلها ، أو تندس في ثنايا التفكير والتعبير والتطبيق في كل مكان !

\*\*\*

من الرق الروماني الشهير . إلى الإقطاع . إلى الرأسمالية . إلى الماركسية والنازية . . غلوف في طرف يعالجه غلوف آخر في الطرف الآخر . . وظلم لطبقة يعالجه ظلم آخر لطبقة أخرى . . واعتداء على « الإنسان » وخصائصه الأساسية في نظام ، يعالجه اعتداء على « الإنسان » وخصائصه الأساسية في النظام الآخر . . ولا يعتدل الميزان مرة واحدة بالعدل بين الطبقات كلها ، والتناسق بين طاقات الإنسان كلها ، وإتاحة المجال « للفردية » التي يتميز بها كل فرد ، مع رعاية حق « الجماعة » الممثلة لخصائص الأفراد جميعا ، في تناسق واعتدال . . الأمر الذي لا يتوافر إلا في منهج الله . .

ونستطيع أن نتجاوز - هنا - عن عهد الرق الروماني - على سبيل الاختصار في هذا

البحث الجمل الذى يشير ولا يفصل - ونبدأ فقط من عهد الإقطاع .. فى استعراض مجمل عام ، يناسب طبيعة هذا البحث الجمل العام ...

\*\*\*

ويجب - ابتداء - أن نميز بين الخصائص الأساسية المميزة للإقطاع بمعناه الاصطلاحي التاريخي الذى عرفته أوربا ، وتلك المظاهر الثانوية السطحية التى ربما تكون قد وجدت فى أنحاء أخرى من الأرض فى عصور مختلفة .. فهذا التمييز ضرورة من الناحية العلمية ، ومن الناحية الشعورية كذلك .

إن نظام الإقطاع فى أوربا لم يكن مجرد وجود ملكيات كبيرة ، ولكنه كان مصحوبا بخصائص هذا النظام الأساسية :  
وأخص خصائص هذا النظام كانت :

١ - تبعية الفلاحين للأرض ، حيث كان وضعهم فيها كوضع آلات الزراعة وحيواناتها ، وانتقالهم - مع الأرض - إلى المالك الجديد كما تنتقل الآلات والحيوانات - ولو كانوا لا يبيعون كما هو الحال فى نظام الرق - ولكن تبعيتهم للأرض تحرمهم حق الانتقال منها إلى أرض أخرى ، كما تحرمهم بطبيعة الحال حق اختيار حرفة أخرى فردية مستقلة .

٢ - كما كانت إرادة السيد « الشريف » هى القانون فى إقطاعيته . فهو الذى يشرع للأقنان ( رقيق الأرض ) وهو الذى يحدد علاقاتهم به وبالأرض ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ..

وهذا هو الإقطاع كما عرفته أوربا وكما ثارت عليه أيضا !  
وهاتان الخاصتان تعتبران علامتين الميزتين لهذا العهد البغيض :

وقد ظلت أوربا تترجح تحت وطأة هذا النظام الفظيع ، الذى تهدر فيه قيمة الإنسان - ابتداء - بجعله تابعا للأرض كلماشية وأدوات الزراعة ، ينتقل معها إلى المالك الجديد . ولا يملك أن يحس بكيئوته « الإنسانية » مستقلة عن الأرض . ولا يملك أن يغادرها - ولو إلى إقطاعية أخرى . وإلا اعتبر آبقا - بحكم القانون - ووجب القبض عليه ورده إلى الأرض التى يتبعها ( وإن كان هذا القانون لم يعد يتفد فى أواخر عهد الإقطاع فى الحالات التى كان المالك الذى أوى الهاربون إلى إقطاعيته يرى أن من مصلحته عدم ردهم إلى سيدهم وأرضهم ! ) .. وتهدر فيه كرامة « الإنسان » مرة أخرى بجعله أسير إرادة الشريف ، واعتبار هذه الإرادة هى القانون .. وليس أحط من وضع يكون فيه الإنسان خاضعا لشريعة هى مجرد إرادة إنسان مثله .. ولو كان هو السيد الشريف !!!

ظلت أوربا تترجح تحت وطأة هذا النظام الفظيع ، حتى انساحت جموع الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، واحتسكوا بالمجتمع الإسلامى ، وعرفوا عن كذب أوضاع حياة الناس فيه ، ورأوا نظاما آخر غير ذلك النظام الفظيع .

رأوا شريعة يتحاكم إليها الناس جميعا ، حاكمهم ومحكومهم ، غنيهم وفقيرهم ، مالكهم ومعدمهم ، صاحب الأرض والعامل فيها على السواء . شريعة ليست هى إرادة السيد صاحب الأرض ، وليست هى إرادة الأمير كذلك . ولا السلطان . إنما هى شريعة تبيئهم جميعا من عند الله . ويتولى الحكم بها قضاة . طالما وقفوا بها فى وجه الأمراء والسلطين ، عند ما كان أحدهم يهيم بظلم الرعية أفرادا أو جماعات . وقد ظهر فى هذه الفترة بالذات أئمة أقوياء وقفوا صرات فى وجه سلاطين الممالك ، وكان لوقفاتهم صداها الذى تنقله الجماهير فى الوطن الإسلامى ، وتعرفها جموع الصليبيين الذين يحتمكون بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان .

وعلى الرغم من كل ما كان قد وقع في المجتمع الإسلامي في هذا الوقت من انحرافات ،  
وعدم مراعاة لشريعة الله في بعض جزئيات الحياة .. فإن المسافة بين هذا المجتمع والمجتمع  
الإقطاعي الذي جاء منه الصليبيون كانت بعيدة بعيدة .

رأوا الناس أحرارا ، لا في الانتقال من مزرعة إلى مزرعة ، ولا في الانتقال من مدينة  
إلى مدينة ، بل في الانتقال خلال الأقطار الإسلامية في أطراف الأرض .. إذ كانت كلها  
وطنا إسلاميا واحدا متصلا لا تقوم فيه الحواجز دون أفراد المسلمين - حتى ولو تعدد  
الأمراء والسلطين .

ورأوا الناس أحرارا في اختيار المهن حسب مزاجهم ورغبتهم واختيارهم . لا يحد من  
حريتهم في هذا قيد ما .

ورأوا أصحاب الحرف يتجمعون فيما يشبه النقابات ، حيث يكون لكل حرفة  
( ريس ) وتقوم العلاقة بين أصحاب الحرفة الواحدة على التعاون والمودة .  
وكل هذه الظواهر لم يكن لها بعد وجود في المجتمع الأوربي الإقطاعي الذي جاء  
منه الصليبيون .

نعم . إنه ربما وجدت بعض الملكيات الكبيرة في المجتمع الإسلامي حينذاك .  
ولكنها لم تكن تنشئ نظام إقطاع كالذي عرفته أوربا . لأنه لا « شريف » ولا « أقتان »  
ولا تبعية للأرض تلصق « الأقتان » بها ، ولا إرادة للسيد هي القانون ! بل القانون  
شريعة من عند الله .. وهذا لم يكن ينشئ نظام إقطاع بالمعنى الاصطلاحي الفني التاريخي  
لنظام الإقطاع . الذي عرفه أولئك الصليبيون .

وفي خلال القرنين اللذين اشتعلت فيهما نار الحروب الصليبية ، طردا وعكسا ، كانت  
الانطباعات والتأثيرات بالمجتمع وأوضاعه تفعل فعلها في نفوس عشرات الألوف من

الصليبيين الذين شاهدوه ، ومئات الألوف بل الملايين ممن وراءهم ، ثم سمعوا قصص العائدين من هناك .

وكانت تتخمر في المجتمع الأوربي هذه الانطباعات والتأثرات ، إلى جانب العوامل المحلية الأخرى ( التي يعتمد الأوروبيون عامة والماركسيون خاصة أن يجعلوها وحدها هي العوامل المؤثرة ) من نشأة الحرف ، والمدن التجارية ، وطبقة التجار ، والامتيازات التي حصلوا عليها في مقابل تمويل الأمراء في حروبهم الصليبية ، وفي حروبهم مع بعضهم البعض ... إلى آخر العوامل التي أدت إلى الثورة على نظام الإقطاع .

لقد كان نظاما جائرا فظيما . امتهنت فيه كرامة « الإنسان » إلى أقصى حد . ولم يكن يفرقه عن نظام الرق إلا أن رقيق الأرض فيه لا يباع ، ولا يقدم للسباع ! وكان أحد التيارات الإسلامية في الأرض ، هو الذي نخر في أساسه . ثم جاءت العوامل الأخرى المحلية فضغطت عليه ، فانهار .

وكرر فعل لإهدار الوجود الفردي والحرية الفردية ، بل لإهدار الوجود الإنساني ، قام النظام الرأسمالي على أساس من إطلاق العنان لنشاط الفرد إلى غير حد ، وللحرية الفردية من غير قيد ، ولا اعتبار الصالح الفردي هو الصالح الأعلى . .

وبرزت هذه الاتجاهات في المجال الاقتصادي إلى أقصى حد ، إذ ترك كل شيء في هذا المجال لنشاط الأفراد ورغباتهم وصوالهم ، دون أي اعتبار للمجتمع ، أو للأخلاق ، أو لأية اعتبارات أخرى يمكن أن تحد من الحرية الفردية ، أو من تحقيق الصالح الفردي ، كما يتراءى للفرد أن يحققه .

وبينما قام هذا الاتجاه في مجال الاجتماع والاقتصاد - في أول الأمر - بدور المخلص

للجواهر من قبضة الإقطاع الفظيعة ؛ وأتاح للمواهب الفردية والنشاط الفردى أن تصل إلى قمة الإبداع والحركة والطلاقة ؛ وأن تتجه الجهود - في سبيل تحقيق الصالح الخاص - إلى استثمار كنوز الأرض ، وقوى الطبيعة للصالح البشرى العام ... إلى آخر الخدمات الكثيرة التى أداها بروز النظام الرأسمالى ، كدور تقدمى بالقياس إلى النظام الإقطاعى فى أوربا . .

بينما قام هذا الاتجاه بهذه الخدمات ، وأدى للبشر هذه الخيرات ، كان عامل التطرف فيه ، وكونه رد فعل لخطأ آخر ، وعلاجاً لداء بداء جديد - أدى هذا كله إلى انطلاق السعار « الرأسمالى » الذى يبدأ من النظام الربوى اللعين الذى صاحب نشأة النظام الرأسمالى ، وتغلغل فيه بحيث أصبح هو أساس الاقتصاد الحديث ؛ ويتهى إلى اعتبار جميع القيم الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية هراء لا معنى له إذا شاءت أن تتدخل فى قواعد الاقتصاد ، وأن توقف هذا السعار المجنون ، الذى لا يتهى إلى تضخم رؤوس الأموال والمصالح الرأسمالية على حساب الطبقات المنتجة فحسب . . ولكن يضيف إلى هذا المظهر البشع ما هو أبشع .. ذلك أن يصبح العمال والصناع والتجار ، وأصحاب المصانع أنفسهم ، مجرد أجراء للسيارة الذين قاموا بتأسيس البنوك ، وجذبوا إليها أموال حملة الأسهم والمودعين ، ليستغلوها لصالحهم ، إذ تعود عليهم حصيلة تشغيل هذه الأموال - ماعدا النصيب الضئيل الذى يصرف لحملة الأسهم ، وللمودعين فى بعض الحالات - بينما يكسب العمال والصناع والتجار وللمستهلكون وأصحاب المصانع أنفسهم كذلك ، للوفاء بالفوائد الربوية التى تعود فى النهاية على الطغمة القليلة من المالىين الذين يمولون الصناعة والتجارة عن طريق الإقراض ، ويقبضون - وهم قاعدون - ثمرة كد الجميع فى نهاية المطاف .

إن بلاء النظام الرأسمالى لا يتمثل فقط فى المظهر البارز الذى يوجه إليه النقد ،

وهو تسخير الشعوب والحكومات لمصالح أصحاب رؤوس الأموال .. فيجب تحديد الطبقة التي تسخر لها هذه الشعوب والحكومات . وهى طبقة مستترة وراء أكذاس من النظريات الاقتصادية ، ووسائل الدعاية والتمويه ، والأساتذة الكبار والجامعات والقوانين واللوائح ، فى جميع أرجاء الأرض .. طبقة المرابين .. الطبقة التي تؤسس بنوك الإقراض ، وتملك سندات التأسيس . طبقة البيوت المالية القابعة هناك فى الظلام ، حيث تعود إليها حصيلة الجهد البشرى كله .. بما فيها جهد أصحاب المصانع والتجار ، الذين يوسمون بأنهم البرجوازيون الكبار .. والنظام الربوى هو المسؤول عن هذا البلاء . هو المسؤول عن عودة حصيلة الجهد البشرى كله إلى هذه الشرذمة الصغيرة من أصحاب البيوت المالية ، ومؤسسى البنوك وحملة سندات التأسيس .

كذلك صاحب النظام الرأسمالى الانحلال الخلقى .. أولا تحت تأثير النظريات المختلفة الاتجاهات .. سواء نظريات الحرية الفردية التي لا يجوز أن يحدها حد أو قيد . أو نظريات حيوانية الإنسان، ومادية الكون ، والتفسير المادى الاقتصادى للتاريخ .. وكلها - كما تقدم - منبثقة من حركة الهروب من الكنيسة ، والشرود من كل تفكير دينى على الإطلاق .

ولكن هناك كذلك عاملا آخر كامنا وراء هذه النظريات كلها ، هو النظام الربوى ..

إن الذى يقتضى بالفائدة لكى يقيم مشروعا من المشروعات ، لابد أن يفكر فى أرباح المشروعات التي تكفل تغطية الفوائد الربوية ، وتكفل له فائضا من الربح .. والمشروعات التي تقوم على إثارة الفرائز الجنسية وتلييتها ، والتي تقوم على إثارة الميل إلى

الترف وتلبيته .. هي أدنى المشروعات إلى الربح ، في عالم متجرد من الهواتف الدينية والخلقية ..

ومن ثم يصبح من السياسة الثابتة لأصحاب المال ( الصيارفة وبيوت المال ومؤسسى البنوك وحملة السندات التأسيسية ) ومعظمهم من اليهود في العالم ، كما يصبح من سياسة الكثيرين من أصحاب المشروعات الذين يقترضون من هذه المؤسسات بالربا .. أن ينشروا في المجتمع الإنسانى حالة من الانهيار الخلقى ، ومن الترف ، ومن التفاهة ، ومن قذارة الاهتمامات ، تسمح بأن تروج فيه مشروعات الترفيه الجنسى فى شتى صورته ، ومشروعات الترف كذلك والمتاع إلى أقصى حد ، بدون حد من دين أو خلق ولا قيد .

وهكذا تصبح صناعة الأفلام المستهترة ، وصلات العرض المهيبة ، والصحافة الداعرة ، وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات .. كما تصبح صناعة أدوات الترف والزينة وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر والحفلات والسهرات ... إلى آخر مظاهر الانحلال والترف التى تقوم عليها صناعات فى العالم .. تصبح هذه كلها فى خدمة الرأسمالية ( أى القاعدة الرأسمالية الممولة ) . وتحتاج إلى فلسفات ونظريات وأساتذة وأدباء وفنانين ومشرعين وأنظمة حكم تسمح وتحمى وتشجع هذه الصناعات . ويكون لرأس المال فى هذه الأنظمة ، هذه القوة التوجيهية ، لأنه هو وحده الذى يتحكم فى المجتمعات اللادينية ، مما لا يكون له حين تخضع الحياة كلها - والمال معها - لمنهج الله فى الحياة . فرأس المال لا يكون له التوجيه المؤذى إلا فى المجتمع الذى لا يهيمن عليه منهج الله ، حيث يتفرد رأس المال بالهيمنة . فأما حين يكون منهج الله هو المسيطر ، فإنه حينئذ سيوجه المجتمع وسيوجه المال المتداول فيه وجهة خيرة نظيفة ، ولن يسمح للمال أن يكون أداة بغي أو أداة فساد .

إنه ليس المال بذاته هو الذى يفسد حياة المجتمع . إنما هو المنهج والمذهب والنظام والتصور الذى يحكم مجتمعا من المجتمعات ..

وليست هذه سوى لمسات سريعة جدا للحالة البشعة التى أنشأها النظام الرأسمالى - بينما كان يعالج التطرف بتطرف آخر ، ويعالج الداء بداء آخر ، ويتأرجح بين طرفى الكبت والجموح ، كالحصان الذى يجمع من شدة اللجام !

ولا نملك أن ندخل فى تفصيل المتاعب الاقتصادية التى أنشأها النظام الربوى الذى قام على أساسه النظام الرأسمالى . ولا أن نتحدث عن أثر هذا النظام فى دورات الانكماش والأزمات الدورية ، وويلات البطالة والكساد التى تصاحب هذه الدورات .

ولا نملك أن ندخل فى تفصيل ويلات الاستعمار التى اقتضاها النظام الرأسمالى ، فى أثناء البحث عن أسواق تمد الصناعات الكبيرة بال خامات ، وفى الوقت ذاته تستهلك مائنتجه هذه الصناعات .

كما لا نملك أن ندخل فى تفصيل ويلات الاستعمار الجديد ، الذى لا يبدو فى صورة الاحتلال العسكرى القديمة . وإنما يبرز فى صورة البحث عن أسواق لرؤوس الأموال الفائضة فى الدول الرأسمالية ، والتى لا تجد لها مجالا للعمل فى بلادها بسبب التشبع الصناعى . ومن ثم تبحث عن بلاد متخلفة « تصنع » برؤوس الأموال الأجنبية ، كي يعود على هذه الأموال الفائض الربوى . ولا تبقى متعطلة فى بلادها المتخمة . هذا الاستعمار الذى يتصارع الآن فى إفريقية بالذات ، على مرأى منا ومسمع ، فى كل مكان .

لا نملك الدخول فى تفصيلات هذه النواحي المتعددة لبلاء النظام الرأسمالى . لأن هذا أمر بطول ، ولا يتفق مع طبيعة هذا البحث الجمل . ويمكن الاجتزاء بالإشارة إليه فى

صدد تقدير التخطيط في خطوات البشرية ، في مجال النظم الاقتصادية والاجتماعية . وهي شاردة من الله ، ومن منهجه للحياة .

\*\*\*

ثم تتمثل الطامة الكبرى في « النظم الجماعية » التي طبقتها أوربا في الشرق أو في الغرب ، على اختلاف أسمائها وأشكالها ، والتي جاءت كرد فعل للجموح الشارد في « النظم الفردية الرأسمالية » .

إنه جموح جديد ينشأ من رد الفعل لجموح قديم . وداء جديد تعالج به البشرية من داء قديم . وتحطيم الخصائص الإنسان الأساسية في جانب ، لإنقاذه من تحطم خصائصه الأساسية في جانب آخر !

وكلها تجتمع عند دعوى تملك الموارد العامة ووسائل الإنتاج إما للشعب كالنازية وإما لطبقة من الشعب كالماركسية . وحكاية تملك هذه الموارد والوسائل للشعب أو لطبقة من الشعب ، في تلك الأنظمة ، حكاية لا يدري أحد كيف يمكن تحقيقها عمليا .. وفي هذا يقول « كاريوهنت » المجري في بحثه : « الشيوعية نظريا وعمليا » ..

« الشيوعية - وفقا للنظرية الكلاسيكية على الأقل - ترمي إلى إقامة مجتمع بلا طبقات ، يكون فيه جميع وسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل ، ملكا للجمهور ، وتختفى منه الدولة ، التي تعد أداة إرغام واضطهاد .. ولكن تقوم مع هذا ، بين الثورة التي تلغى النظام الرأسمالي وبين هذا المجتمع الشيوعي ، فترة انتقال تعرف باسم « ديكتاتورية الطبقة الكادحة » وهذه هي المرحلة التي تزعم روسيا أنها تمر بها الآن .. ومن المهم أن نلاحظ أن الروس يسمونها « الاشتراكية » ( لا الشيوعية ) . وأن الجمهوريات التي تؤلف الاتحاد السوفيتي يطلق عليها : « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » ( لا الشيوعية ) ،

لأن الشيوعية مرحلة أعلى ، مازالت في المستقبل . والمعروف أن مقياس المجتمع الشيوعي هو أن يكون خاضعا لمبدأ : « من كل إنسان حسب قدرته ، ولكل إنسان حسب حاجته » . ولكن إذا أخذنا ما نادى به ماركس في البداية ودأب ستالين على تكراره ، وجدنا أن مساواة كهذه مستحيلة في الدولة الاشتراكية . ولهذا يجب أن يتحكم فيها مبدأ « من كل إنسان بحسب قدرته ، ولكل إنسان بحسب عمله » .

... « وحذا لينين وستالين حذو ماركس وأطلقا تسمية « الاشتراكية » على النظام الجديد ، الذي سينشأ على أنقاض الرأسمالية . ولهذا لم ترد في الدستور السوفيتي الذي صدر في ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٦ أية إشارة إلى « الشيوعية » إلا في المادة ١٢٦ التي أشارت بالتحديد إلى « الحزب الشيوعي » ، ووصفت الاتحاد السوفيتي بأنه « دولة اشتراكية للعمال والفلاحين » . . وقد قال ستالين في التقرير الذي أصدره عن الدستور في ٥ ديسمبر : إن الشيء الوحيد الذي تم تحقيقه إلى الآن هو « الاشتراكية » ورفض تعديلا بإدراج هذه العبارة في الدستور ، وهي « أن الغاية النهائية للحركة السوفيتية هي خلق مجتمع شيوعي بحت » وقال : إنه ليست لهذه العبارة صلة مباشرة بالدستور ، الذي يسعى إلى مجرد تدشين المكاسب التي تم الظفر بها فعلا ..

« وسينكر الكثيرون من الاشتراكيين - بلا ريب - حق ستالين في وصفه هذا للنظام السياسي والاقتصادي السوفيتي الحالي . ولكننا نجد فيما يتعلق بالغايات التي يسعون إلى تحقيقها ، أن عبارتي « الشيوعية » و « الاشتراكية » قابلتان للتعديل والتغيير في الواقع . وهو أمر يمكن لأي إنسان أن يكتشفه ، إذا راجع قاموس « أكسفورد » الإنجليزي .. فإن جوهر الاثنيتين هو أن وسائل الإنتاج يجب أن تكون ملكا للشعب .. ولكن لم يتسن لإنسان إلى الآن - أن يكتشف كيف يمكن للشعب السيطرة على هذه الوسائل .

ولهذا أسند أمر الإشراف عليها باسم الشعب إلى الدولة أو أى هيئات أخرى تعين لهذا الغرض . وهكذا أصبحت الملكية الشعبية تعنى فى الواقع رأسمالية الدولة . وكانت الاشتراكية السوفيتية أعظم تعبير قوى مناسب لها . ولهذا فإنه من الخير لنا قبل البحث فى الأساس النظرى للشيوعية ، أن نذكر أن الهدف التهاى لها هو نفسه هدف الاشتراكية . وأن أى خلاقات بين الاثنين إنما تكون على الوسيلة لا الغاية فالاشتراكيون يرون أنهم يستطيعون إدخال نظامهم والحفاظة عليه بوسائل ديمقراطية ، ولكن الشيوعيين يعتقدون أن ذلك مستحيل .

والكارثة الفادحة فى الأنظمة الجماعية ، التى عرقتها أوربا فى الشرق وفى الغرب - على اختلاف مسمياتها وأشكالها - هى محاولة إلغاء وجود الفرد ، فى حين أن الفردية عميقة فى التكوين البيولوجى وبالتالى فى التكوين العقلى والنفسى للإنسان . واستخدام هذه الفردية بأقصى طاقتها فى إطار يوجهها إلى خير المجموع هو النظام المناسب لفطرة الإنسان . أما محاولة كبعها وقتلها بشتى الوسائل ، فى تلك الأنظمة ، فهى عملية تدمير تامة للجهاز الإنسانى .

ومن مقتضيات هذه « الفردية » ألا يكون التنظيم الاقتصادى بحيث يضع كل شىء فى يد الدولة فتصبح - إلى جوار سلطاتها السياسية والقانونية - هى المالك الوحيد لموارد الإنتاج وأدواته ووسائله . وهى التاجر الوحيد الذى يستورد ويصدر ويبيع للأفراد . وهى « المفكر » الوحيد كذلك لأنها لا تسمح بالرأى المخالف ، ولا بالمناقشة لمبادئ الدولة وأفكارها ووسائلها . . والخصائص الإنسانية العامة والخصائص الفردية الخاصة ، كلها مهددة بالدمار فى مثل هذه الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الفطرة البشرية لا تخضع طويلا لمثل هذه المحاولات الجائرة

على الطبيعة البشرية ، والكينونة الإنسانية . ومن ثم تضغط حتى تسحق هذه المحاولات شيئاً فشيئاً . وقد اضطرت الأنظمة الشيوعية ( أو الاشتراكية كما تسمى نفسها ) إلى التعديلات المتوالية ، التي هي في الحقيقة « عدولات » عن كثير من الأسس الرئيسية في المذهب . لأن ضغط الفطرة كان أقوى من أن تصمد له كل أجهزة الدولة وضغطها الساحق .

\*\*\*

وحسبنا هذه الإشارات إلى التخطيط بين طرفي المبالغة في كل اتجاه ، وفي كل نظام ؛ والترشح في خطوات البشرية ذات اليمين وذات الشمال ؛ وما صاحبه من مذابح رهيبة ، ذهب فيها الملايين من البشرية ، ومن مذابح كذلك للأخلاق والآداب الإنسانية ، ارتكست فيها الإنسانية في الوحل .

وقد رأينا - في اختصار وإجمال - هذه الظواهر في الجوانب الثلاثة الرئيسية لحياة الإنسان متمثلة في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته . وفي النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين . وفي النظرة إلى الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية .

وكانت هذه هي الضريبة الفادحة التي دفعتها أوربا - ومن ورائها البشرية كلها مع الأسف - لشرودها عن الله ومنهجه في الحياة ..

## حَضَارَةُ لَا تَلَامُ الْإِنْسَانَ

إن الإبداع المادى فى هذه الأرض على يد الإنسان .. فوق أنه ضرورة لحياته ولنمو هذه الحياة ورقبها .. هو فى الوقت ذاته وظيفة أساسية له ، يحقق فيها وجوده ، وينمى فيها ذاتيته ، ويدرب فيها استعداداته الكامنة ، التى أودعها الله كينونته الفريدة المعقدة المركبة .. فهو وحده من بين سائر الأحياء الذى يؤدى هذه الوظيفة عن وعى وقصد وإرادة .. ثم هو - بعد هذا وذلك واجب يحقق به غاية وجوده الكبرى : وهى الخلافة عن الله فى الأرض : « إني جاعل فى الأرض خليفة » .. ويحقق بها العبادة لله عن طريق هذه الخلافة ، والعمل فيها باسم الله ، ابتغاء رضوان الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »<sup>(١)</sup> ..

ولكن هذا الإبداع المادى - بكل مدلولاته - من فلاحه الأرض ، إلى استخراج كنوزها واستخدام طاقاتها ، إلى إنتاج المواد الاستهلاكية للاستمتاع بطيبات الحياة ، إلى ريادة الفضاء الكونى وما قد تيسر ريادته من الكواكب . هذا الإبداع بكل مدلولاته يجب أن يكون فى خدمة « الإنسان » ، فهكذا أراد له خالقه ، وهو يعلن أنه سخر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه .. وأن يكون ملحوظا فى هذا الإبداع وفى بناء الحضارة التى تقوم عليه ، تنمية خصائص « الإنسان » : خصائصه كجنس يفتقر عن المادة ويفترق عن الحيوان ، وخصائص أفراده الذين يؤلف كل واحد منهم

---

(١) تراجع تفسير سورة النّازيات فى كتاب : « فى ظلال القرآن » الجزء : ٢٧ من ٢٧ - ٣٠

عالما خاصا - كما أسلفنا - بفرديته البيولوجية والنفسية والعقلية .. وألا يكون في طرائق الإبداع المادى ولا في بناء الحضارة التى تقوم عليه ، ما يناقض هذه الخصائص أو يدفنها ، أو يعوق نموها ، أو يخطمها ؛ ولا أن يهينها كذلك ويحقرها ؛ ولا أن يجعل دور الإنسان فى هذه الأرض دورا ثانويا أو تابعا للإبداع المادى ، بأى حال من الأحوال .

وليس هنالك تعارض إطلاقا بين أن يظل « الإنسان » سيد هذه الأرض ، وأن تنمى خصائصه الجنسية والفردية ، وتؤكد شخصيته كجنس وكفرد ، وبين أن ينمو الإبداع المادى ويتجدد ويترقى ..

وليس الأمر أنه ليس هنالك تعارض - فحسب - بل هنالك تناسق بين هذا وذلك حين تستقيم النظرة إلى الإنسان ، ومركزه فى هذا الوجود ، ودوره فى هذه الأرض ، وخصائصه التى زود بها من لدن خالقه العظيم ، وواجبه الذى كلفه والذى خلق من أجله .. ولكن صانعى هذه الحضارة الحديثة - ولو أنها حلقة من حلقات الحضارة الإنسانية غير منفصلة عنها فى جذورها العميقة - لم يكن لديهم العلم بحقيقة هذا الإنسان وخصائصه . كما أنه لم تكن لديهم الرغبة فى احترامه وتكريمه .

لم يكن لديهم العلم ، لأن هذه الحضارة بدأت ونمت خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، بينما الجهالة المطلقة بالإنسان لا تزال قائمة حتى اللحظة . وليس هنالك ما هو صحيح وثابت عنه إلا ما أخبر به عنه خالقه العظيم .. والحضارة المادية الحديثة نشأت فى جو الشرود من الكنيسة ، والنفور من ظلها ، ومن ظل الدين .. كل الدين ..

ولم تكن لديهم الرغبة ، لأن أية محاولة لتكريم الإنسان ، كانت ستذكر بمركزه الذى يعطيه الدين له .. وكل شئ كان جائزا فى أوربا إلا أن تجسّد سيرة الدين . وأن

تكون لهذا الدين أية علاقة بأوضاع الإنسان « المدنية » وبالنظم الاجتماعية والاقتصادية ،  
وبعلاقات العمل وارتباطاته وطرائقه الفنية ! بل كانت تتوافر عندهم الرغبة المضادة ،  
والحرص البالغ ، على تحقير الإنسان ، وتدنيسه وتلويثه ، وإثبات حيوانيته وقذارته الجنسية  
من جهة ؛ وضآلة دوره بإزاء المادة وقوانينها الحتمية ، والاقتصاد وإرادته القاهرة من جهة  
أخرى ، كأنما هم أعداء لهذا « الجنس الإنسانى » حريصون - فى شماتة ظاهرة - على  
إبرازه يتلطف فى المستنقع ويتلطف بالأحوال . كل ذلك ليقولوا للكنيسة : خذى إلهك  
ودينك ، وخذى معها إنسانك هذا الذى تزعمين أن الله قد نفخ فيه من روحه واذهبى  
بعيدا عنا وعن حياتنا الواقعية !!!

وأيا ما كانت الملابس التى أدت إلى هذه المأساة ، فإن الحقيقة الواقعية ، أن  
هذه الحضارة الحديثة - ولو أنها قامت ابتداء على أسس الاتجاهات التجريبية العلمية التى  
اقتبستها أوربا من الأندلس ومن الشرق الإسلامى ، النابعة ابتداء من التوجيهات القرآنية  
لتدبر النواميس واستغلال الطاقات والمدخرات فى الأرض ، ومن روح الإسلام  
الواقعية الإنسانية ، إلا أنها حين انتقلت إلى أوربا لم تنتقل مجذورها الفلسفية ، إنما  
انتقلت علوما وطرقا فنية ، ومناهج تجريبية . وصادفت ذلك « الفصام النكد »<sup>(١)</sup> بين  
الدين والنهضة الحضارية . ومن ثم لم يلحظ فى بنائها هذا « الإنسان » المفروض أنه  
صانعها ، وأنها من أجله صنعت . وكذلك أصبحت لا تلائم هذا « الإنسان » بل تسحق  
خصائصه الأساسية التى تجعل منه هذا الكائن الفذ الفريد فى الكون ، والتى بدونها  
لا يملك هذا الكائن أن يؤدي دوره . كما أن إغفال بعضها فى أى نظام اجتماعى  
أو اقتصادى ، وفى أية حضارة ، من شأنه أن يحدث الاختلال فى الكينونة البشرية ،  
ويقضى لا على الجوانب التى أغفلت لحسب ، بل كذلك على الجوانب الأخرى ، نظراً

---

(١) يراجع بتوسع فصل « الفصام النكد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

لأن الجهاز الإنساني كل مركب متناسق ، يعمل في الواقع كوحدة في كل نشاط يبذله ، ولا يوجد مجزءا إلا في عالم البحوث العقلية والعملية .

\*\*\*

ونعود إلى الاقتباس من تقارير الدكتور ألكسيس كاريل عن هذه الحضارة وعن نشأتها ، وعن عدم ملاءمتها للإنسان ، وعن الخصائص الإنسانية التي تهملها أو تحطمها :

« إن الحضارة العصرية تجرد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا . . . ( ص ٣٨ ) .

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالا تاما عند تنظيم الحياة الصناعية . إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ : الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف ، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال <sup>(١)</sup> . . . وقد اتسع نطاقها دون أي تفكير في طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ، ودون أي اعتبار للتأثيرات التي تحدثها طريقة الحياة الصناعية التي يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم » . ( ص ٤٠ )

« وهؤلاء النظريون يبنون حضارات ، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان ،

---

(١) والحال لا يختلف من ناحية أثر المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعامل إذا كان الإنتاج ملسكا للشعب أو لطبقة منه - أي للدولة - إذا ظلت طريقة العمل واحدة .

إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهولة للإنسان . إن نظم الحكومات التي أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم عديمة القيمة . . فبادى الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين ، تنطبق فقط على الرجال الجامدين ( غير الأحياء أو المتحركين ) . فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية مازالت غير معروفة . فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية » ... ( ص ٤٣ )

« يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياء بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجهاد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية . . . فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا . . إننا قوم نساء . لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا . . إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها . ولكنها لا تدرك ذلك . إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها . وحقيقة الأمر أن مدينتنا مثل المدينيات - التي سبقها - أوجدت أحوالا معينة للحياة ، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة . وذلك لأسباب لا تزال غامضة » . . ( ص ٤٣ - ٤٤ )

« ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة المصرية ، فقد أخفقت هذه الحضارة في إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تتعثر فيه . لأن بني الإنسان لم ينموا بالسرعة التي تشب بها الأنظمة من عقولهم . ومن ثم فإن أكثر ما يعرض الأمم المصرية للخطر

هو.النقص العقلى والأدبى الذى يعانى منه الزعماء السياسيون « ... ( ص ٣٧ ) .

« إن العقل . وقوة الإرادة ، والأخلاق ، ترتبط ارتباطا وثيقا . بيد أن الإحساس الأدبى أهم بكثير من العقل . وحينما ينعدم هذا الإحساس من أحد الشعوب ، فإن كيانه الاجتماعى كله يبدأ فى الانهيار البطيئ » ... ( ص ١٦٠ ) .

« إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى . وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بنى الإنسان - إلى حد كبير - للنقائص الموجودة فى جوهر السيكلوجى . إذ أن تفوق المادة ومبادئ « دين الصناعة » حطمت الثقافة والجمال والأخلاق » ... ( ص ١٨٤ )

« يكاد المجتمع الحديث أن يهمل الإحساس الأدبى إهمالا تاما . بل لقد كبتنا مظاهره فعلا . . . . فقد أشر بنا جميعا الرغبة فى التخلص من المسؤولية . أما أولئك الذين يميزون الخير من الشر ، ويعملون ويتحفظون ، فإنهم يظنون فقراء ، وينظر إليهم بضيق وتأنف . والمرأة التى أنجبت عدة أطفال وأوقفت نفسها على تعليمهم ، بدلا من الاهتمام الخاص بنفسها ، تعتبر ضعيفة العقل . وإذا ادخر رجل بعض المال لزوجته وتعليم أولاده ، سرق منه هذا المبلغ بواسطة المالىين أصحاب المشروعات أو أخذته الحكومة » ... ( ص ١٨٥ ) .

« إن المادية البربرية التى تتسم بها حضارتنا ، لا تقاوم السمو العقلى فحسب . بل إنها تسحق أيضا الشخص العاطفى ، واللطيف والضعيف ، والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال » ... ( ص ٣٧١ ) .

إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفى ، أو الجمالى ، أو الدينى ، يخلق أشخاصا فى المرتبة

الدنيا ، ذوى عقول ضيقة مريضة . وبالرغم من أن التعليم العقلي يهياً الآن لكل فرد ، إلا أننا ما زلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص في كل مكان . . وعلى كل حال فإن الثقافة العالية ليست ضرورية لتخصب الشعور بالجمال ، والإحساس الدينى ، ولتنتج فنانيين وشعراء ، ورجال دين ، وجميع أولئك الذين يتأملون مختلف وجوه الجمال . . وهذا الذى نقوله صحيح أيضاً بالنسبة للإحساس الأدبى وأصالة الحكم . . وجميع ألوان النشاط هذه تكاد تكون كافية في حد ذاتها . . إنها لا تحتاج إلى الاقتران بالذكاء الحاد لى تهى للإنسان استعداداً للسعادة ، فيجب أن يكون نموها هو الهدف الأسمى للتعليم لأنها تهى التوازن للفرد . إنها تجعل منه حجراً صلباً فى الصرح الاجتماعى ، ولا شك فى أن الإحساس الأدبى ضرورى أكثر من الذكاء بالنسبة لأولئك الذين يعملون على زيادة الحضارة الصناعية ( ص ١٦٨ - ١٦٩ )

« وبظل تذوق الجمال كامناً ( مكبوتاً ) فى أغلب الأفراد ، لأن الحضارة الصناعية أحاطتهم بمناظر قبيحة كريهة خشنه . ولأننا تحولنا إلى آلات . فالعامل يقضى حياته ، وهو يكرر الإشارات والحركات نفسها آلاف المرات فى كل يوم . . إنه يصنع قطعاً مفردة فقط ، ولا كنه لا يصنع وحدة كاملة مطلقاً . أى أنه غير مسموح له باستعمال عقله . إنه الحصان الأعمى الذى يدور فى دائرة واحدة طول النهار ليخرج الماء من البئر . إن الصناعة تحرم على الإنسان استخدام وجوه نشاطه العقلى التى يمكن أن تجلب له قسطاً من المتعة كل يوم . . لقد ارتكبت المدنية الحديثة خطأ كبيراً دائماً بتضحية العقل فى سبيل المادة . خطأ تزداد خطورته يوماً بعد يوم لأن أحداً لا يثور ضده ، ولأن الجميع يتقبلونه بسهولة كما يتقبلون الحياة غير الصحية فى المدن الكبرى والسجن فى المصانع . ومع ذلك فإن أولئك

الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائي بالجمال في عملهم ، أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك . . إن الصناعة - بشكلها الحالي - حرمت العامل من الابتداع والجمال . وتعزى خشونة حضارتنا وكآبتها - ولو جزئيا - إلى الكبت الذي نعانى منه في حياتنا اليومية ، التي لا تشمل إلا على أبسط أشكال الاستمتاع بالجمال » ( ص ١٦١ - ١٦٢ ) .

« يتجاهل المجتمع العصري الفرد ، فهو لا يحسب حسابا إلا « لبنى الإنسان » فقط . إنه يؤمن بحقيقة « الكونيات » ويعامل الناس كخلاصات . ولقد أدى اضطراب الأمر فيما يتعلق بالفرد ، وبينى الإنسان ، إلى وقوع المدنية الصناعية في غلطة جوهرية . وهي معاملة الناس على أساس قواعد مرسومة . فلو أننا كنا جميعا متساوين لأمكن أن نربي ونعيش ونعمل في قطعان كبيرة أشبه بقطعان الأغنام . بيد أن لكل منا شخصيته الخاصة ولا يمكن أن يعامل كرمز » . . . ( ص ٣١٨ )

« لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما . ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة ، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن ، أو مطاعمهن الاجتماعية ، أو مباحثهن ، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية ، أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما . . . وهكذا يضيعن أوقاتهم في الكسل . إنهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار ، فيتعلم منهم أمورا كثيرة . . إن الكلاب الصغيرة التي تنشأ مع أخرى من نفس عمرها في حظيرة واحدة ، لا تنمو نموا مكتملا كالكلاب الحرة التي تستطيع أن تمشي في إثر والديها . والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك

الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكاء . لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقا للقوالب الموجودة فى محيطه . إذ أنه لا يتعلم إلا قليلا من الأطفال الذين فى مثل سنه . وحينما يكون مجرد وحدة فى المدرسة ، فإنه يظل غير مكتمل . ولكى يبلغ الفرد قوته الكاملة ، فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية ، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة » . . . ( ص ٣١٨ - ٣١٩ )

« إن إهمال مؤسساتنا الاجتماعية للفردية مسؤول أيضا عن ضمور الراشدين . لأن الإنسان لا يتحمل - دون أضرار - طريقة الحياة ، وتشابه العمل السخيف المفروض على موظفى وعمال المكاتب والمصانع ، وعلى جميع من يساهمون فى الإنتاج الضخم » . . . ( ص ٣١٩ ) .

\*\*\*

ويختتم الرجل هذه التقارير التى اقتطفنا اليسير منها ، والتى تتناثر فى كتابه كله ، وتتجمع عند إحساس واحد : هو الإحساس بخطر هذه الحضارة على « الإنسان » ومقوماته الذاتية ، وخصائصه الإنسانية . . . يختتمها بهذا التقرير الذى يحمل طابع الإنذار . والذى - مع أنه يصدر عن « عالم » - يشبه صرخات الإنذارات الدينية للعصاة :

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها المجتمع العصرى .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى جسمه وشعوره ، وعرفنا أنه لا يستطيع تكيف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها « التكنولوجيا » وأن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وأن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن المسؤولون . لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع .. لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك

الخطيئة العظمى . الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً .. إن مبادئ « الدين العلمى »  
والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو « الحقيقة البيولوجية » .. فالحياة لا تعطى  
إلا إجابة واحدة حينما تُستأذن فى ارتياد الأرض المحرمة .. هى إضعاف السائل .. ولهذا  
فإن الحضارة آخذة فى الانهيار ، لأن علوم الجهاد قادتنا إلى أرض ليست لنا فقبلنا هداياها  
جميعا بلا تمييز ولا تبصر .. ولقد أصبح الفرد ضعيفا ، متخصصا ، فاجرا ، غبيا ، غير قادر على  
التحكم فى نفسه ومؤسسته » ( ص ٣٢٢ ) .

ثم يعقب هذا الإنذار بصيحة أخرى فيما ينبغى عمله فى فصل طويل فى كتابه بعنوان:  
« إعادة إنشاء الإنسان » وفيه يقول : -

« يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان - فى تمام شخصيته - الإنسان الذى أضعفته  
الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة .. كذلك يجب أن يحدد الجنس مرة أخرى . فيجب  
أن يكون كل فرد إما « ذكرا » وإما « أنثى » فلا يظهر مطلقا صفات الجنس الآخر  
العقلية وميوله الجنسية وطموحه . وبدلا من أن يشبه الآلة التى تنتج فى مجموعات يجب على  
الإنسان - بعكس ذلك - أن يؤكد وحدانيته .. ولكى يفيد تكوين الشخصية يجب أن  
نحطم هيكل المدرسة ، والمصنع والمكتب ، وأن ننبد مبادئ الحضارة التكنولوجية  
نفسها » ... ( ص ٣٦٨ ) .

ومن قبل يقول فى تقديمه لكتابه إنه « كذلك كتب لأولئك الذين يجدون من  
أنفسهم شجاعة كافية ، ليدركوا - ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عميقة وسياسية

اجتماعية - بل أيضا .. ضرورة قلب الحضارة الصناعية ، وظهور فكرة أخرى للتقدم  
البشرى » ... (ص ١٢) .

\*\*\*

هذه المقتطفات توسعنا فيها - كما توسعنا في المقتطفات التي نقلناها عن دكتور كاريل  
في فصل « الإنسان ذلك المجهول » - عن عمد بوصفها شهادة من رجل أول صفاته أنه  
« عالم » دارس لموضوعه ، متمكن منه . ثم هو من الناشئين في كنف هذه الحضارة  
التي يثور عليها هذه الثورة ، ومن المؤمنين بالعلم ، الذي يعلن عن عجزه وقصوره  
هذا الإعلان ..

وهذه المقتطفات - وحدها - تكفي للدلالة العميقة على أن هذه الحضارة « حضارة  
لا تلام الإنسان » . لأنها قامت دون معرفة بطبيعته ، وسارت في طريقها دون اعتبار  
لخصائصه ، ودون اعتبار كذلك لما تنزله به من ويلات .

وفي الطريق أهدرت خصائصه كجنس ، وأهدرت خصائصه كفرد ، وأهدرت  
خصائص الذكورة والأنوثة .. في سبيل توفير إنتاج ضخم ، تعود أرباحه إلى عدد محدود  
من الجشعين ، وفي أحسن الحالات في سبيل تيسيرات مادية ورفاهية مشكوك - على  
الأقل - فيما إذا كانت ذات فائدة حقيقة للإنسان ، ومقطوع بدون شك بأنها لا تساوى  
ما أهدر في سبيلها من « إنسانية الإنسان » وخصائصه كجنس ، ومن إهدار خصائص  
الفردية الواضحة فيه ، ومن إهدار خصائص المرأة والرجل والأسرة والطفل . وكل  
مقومات الحياة .

وليست هذه كل مأخذنا على هذه الحضارة ، ولا على الحياة التي تقوم عليها . وكذلك

ليست هذه زاوية نظرتنا إليها تماما . فهناك اختلافات في تشخيص « الداء » أوفى « تكيف الموقف » بيننا وبين الرجل - كما سنبين في الفصل قبل الأخير من هذا الكتاب - كما أن الاختلافات بيننا وبينه تكثر وتتسع عند « وصف الدواء » وطريقة العلاج .

فالرجل محكوم في تفكيره كله - على الرغم من سعة أفقه ورحابة نفسه وإخلاصه العلمى - بتاريخ يثبته الحضارية ، وبرواسب ووراثات فكرية وشعورية وتاريخية ، لا يملك الخلاص منها . مهما بدا له أنه تحرر من كل هذه الضغوط .

ونذكر على سبيل المثال حديثه عن كبت هذه الحضارة للنشاط الدينى للأفراد الذين يعيشون في ظلها ، وأثر هذا الكبت في خلق أشخاص في المرتبة الدنيا .

إن صورة معينة من صور « النشاط الدينى » هى التى تخايل له فى كل حديثه المتفرق فى الكتاب عن هذا الجانب . صورة مزاولة العقيدة مزاولة روحية بحتة . كما يزاول الفرد نشاطه الفنى والجمالى والأدبى . وهو يلحق النشاط الدينى بهذه الألوان من النشاط ، بوصفه واحدا منها ..

هذه الصورة مستمدة من التصورات الدينية كما هى سائدة فى أوربا ، باعتبار الدين نشاطا روحيا فرديا يتمثل فى الصلاة والدعاء ، والمناجاة ، والتصوف إلى آخر صور النشاط الفردى ( الروحى ) للعقيدة ..

وهو يعيب على الحضارة الصناعية كبتها لهذا النشاط فى هذه الصورة . وعلى الرغم من شفافية شعوره بهذا الجانب ، ورفرفة روحه وهو يتحدث عنه ، وتجاربه الذاتية فى هذا الحقل ..

على الرغم من هذا كله فهو لا يتمثل الدين - كما نتمثله نحن - منهج حياة كامل

.. هذا النشاط الذى يصفه جانب واحد من جوانبه .. وهو منهج يسيطر على هذا النشاط « الروحى » كما يسيطر على النشاط الفنى والجمالى والأدبى .. كما يسيطر أيضا على النظام الاجتماعى والاقتصادى ، والحضارى كله .. فنه تنبع وإليه ترجع ، كل هذه الألوان من النشاط ، فى كل جانب من جوانب الحياة .

وجناية الحضارة الراهنة ، وسبب فسادها الأساسى ، وإهدارها للقيم الإنسانية والخصائص الإنسانية ، والقومات الفردية ... وكل ما يدمغها به دكتور كاريل بحق ، يمكن فى رفضها ابتداء أن يكون للدين - بوصفه منهجا للحياة من عند الله - هذه الاختصاصات وهذا السلطان . أى رفضها لألوهية الله سبحانه . هذا الرفض المتمثل فى اتخاذ مناهج للحياة غير منهجه ، ولو لم تعلن رفضها لألوهية الله جهرا - كالبلاد الشيوعية - فاتخاذ مناهج من صنع البشر هو رفض لألوهية الله قطعا .

وهذا الرفض سابق على قيام هذه الحضارة . وله أسبابه الخاصة فى التاريخ الأوروبى من ناحية ، وفى تاريخ النصرانية فى أوروبا من ناحية أخرى . وله ما يفسره كذلك .<sup>(١)</sup> وبسبب هذا الرفض القديم - منذ أيام النهضة - وارتداد أوروبا إلى الوثنية الرومانية . قامت الحضارة الحديثة على قاعدة لا دينية .. ومن هذه الثغرة جاءت كل الآفات ، وجناباتها الحقيقية على « الإنسان » تنبع كلها من هذا المصدر الخبيث . وإهدارها للقيم الإنسانية ، والخصائص النوعية والفردية ، مرده كله إلى هذا المنبت الفكد .

وفى هذا « التشخيص » نختلف كل الاختلاف مع دكتور كاريل . نختلف فى أننا نبدأ من الجذور العميقة ، بينما يبدأ هو من أحد الفروع وهو « تخلف علوم الإنسان عن

---

(١) يراجع فصل « الفصام الفكد » فى كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

علوم المادة » وفي أننا ندرك حدود النشاط الدينى التى تكبتها هذه الحضارة فى مداها الواسع الشامل لكل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

ومن ثم نختلف فى وصف العلاج .. على ذات المستوى .

ولكن هذا ليس مكانه هذا الفصل فسنعالجه فى الفصل قبل الأخير عند اقتراح « طريق الخلاص » .

وحسبنا هنا أن نشير إلى أصل الفساد فى منابت شجرة الحضارة الراهنة ، إلى جانب الظواهر المتنوعة التى عرضها دكتور كاريل فى إدراك سليم ، وإخلاص أكيد فى كتابه القيم . بوصفه أحد العلماء الكبار ، الذين يعتمدون على « العلم » وحده فى الملاحظة والتشخيص والعلاج .

## عقوبة الفطرة

لم يكن بد ، وقد شرد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه . . وعبد الإنسان نفسه واتخذ  
إلهه هواه . وجعل الإنسان نفسه كذلك وراح يخبط في التيه بلا دليل . وأقام منهج حياته  
على قواعد من هذا الجهل ومن ذلك الهوى . واعتدى على فطرته التي فطره الله عليها في  
حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه .

لم يكن بد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له ، فاعتبر نفسه حيوانا - وقد أراد الله  
إنسانا - وجعل نفسه آلة - وقد أراد الله مهندسا للآلة . بل جعل الآلة إلهًا يحكم فيه  
بما يريد . وجعل المادة إلهًا يحكم فيه بما يريد . وجعل الاقتصاد إلهًا يحكم فيه بما يريد - وقد  
أراد له ربه أن يكون سيد المادة ، وسيد الاقتصاد . ولكنه رفض هذا التكريم كله  
لينجو فقط من الكنيسة ، ويشرد من إله الكنيسة !

لم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيوانا لطيفا - كما أن الرجل حيوان خشن -  
غاية الالتقاء بينهما اللذة ، وغاية الاتصال بينهما المتاع . ونسى أن الله يرفع هذه العلاقة  
ويطهرها ويزكيها ، وينوط بها امتداد الحياة من جهة ، وترقية الحياة من جهة أخرى ،  
ويربط بها عجلة التمدن الإنساني ، ويجعل من الأسرة محض المستقبل ، ويجعل من المرأة  
حارسة الإنتاج النفيس . . نتاج المادة الإنسانية . . ويصونها من التبذل كي لا تكون  
مجرد أداة لذة . ويصونها من الاشتغال بإنتاج المواد في المصنع ، وهي في الأسرة تنتج  
وتحرس مادة « الإنسان » .

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه « الإنسانية » ليحصر طاقته في الإنتاج المادى ؛ وأقام حياته كلها على أساس مادى ، وتصور مادى ؛ وكبت الجوانب الحية المرفقة اللطيفة في حسه ، والتي وهبها الله له لأنه « الإنسان » الخليفة الفذة في هذا الكون ، التي تشمل المتناقضات كلها في تناسق بديع .

لم يكن بد وقد أقام الإنسان نظامه على الربا ، ليكد القطيع البشرى كله في خدمة بضعة آلاف من مؤسسى البيوت المالية والبنوك المرابين ، تعود إليهم حصيلة كد البشرية في أقاصى الأرض ، وهم قابعون وراء المبكاتب الفخمة ، والنظريات الاقتصادية ، وجميع أجهزة التوجيه والإعلام !

وفي النهاية .. لم يكن بد وقد اتخذ الإنسان له آلهة من دون الله ؛ فأتخذ من المال إلهًا ، ومن الهوى إلهًا ، ومن المادة إلهًا ، ومن الإنتاج إلهًا ، ومن الأرض إلهًا ، ومن الجنس إلهًا ، ومن المشرعين له آلهة يفتصبون اختصاص الله في التشريع لعباده ، فيفتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله .. كل هذه الآلهة اتخذها وعبدها ، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته !!! .

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تحمل به عقوبة الفطرة ، وأن يؤدي ضريبة المخالفة عن ندائها العميق .. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة .. وقد كان ..

كان .. وأداها من نفسه وأعصابه . ومن بدنه وعاقبته . ومن سعادته وطمأنينته . ومن مواهبه وخصائصه . ومن دنياه وآخرته .

أداها - وفي الأمم التي بلغت ذروة الحضارة المادية بالذات - تناقصا في النسل يهدد

بالانقراض . وتناقصا في الخصائص الإنسانية يوحى بالنكسة إلى البربرية . وتناقصا في الذكاء والمستوى العقلى يهدد بانهيار العلم الذى قامت عليه الحضارة ، وبانهيار الحضارة ذاتها فى النهاية .

وظهرت آثار الكبت للطاقات الأخرى التى لا تحتاج إليها الصناعة بطرائقها الخاضعة ؛ وآثار القلق على المستقبل فى المجتمع المادى المتناحر ، وآثار الخواء الروحى الذى تفرضه الفلسفات والأوضاع فى المدنية الكافرة . . ظهرت آثارها فى صورة الأمراض العصبية والعقلية والنفسية والعتة والجنون والشذوذ والانحراف والجريمة .

وظهرت آثار التوجيه للتواصل إلى حيوانية الإنسان وماديته وسلبيته ، وإطلاق شهواته وغرائزه من كل ضابط . . ظهرت فى صورة الانحلال ، واللامبالاة ، والسلبية ، وقبول الديكتاتوريات ، وحياة القطيع ، التى لا هدف لها إلا السفاد والقاح والطعام والشراب .

وكتب على البشرية كلها أن تؤدي الضريبة فادحة صارمة ثقيلة : حروبا رعية ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين . وأزمات تلوأزمات .. أزمات إذا قل الإنتاج وأزمات إذا زاد الإنتاج . أزمات إذا مال الميزان التجارى إلى العجز وأزمات إذا مال الميزان التجارى إلى الزيادة . أزمات إذا نقصت المحصولات وأزمات إذا فاضت المحصولات . أزمات إذا قل النسل وأزمات إذا زاد النسل . وتخبط من هنا وتخبط من هناك . وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار . وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم ، فيخرون أمواتا بالسكتة وتفجر المنخ ، أو يخرون أشلاء أو مجانين ، كما لو كانت قد سلطت عليهم قوى المردة الأسطورية من حيث لا يحتسبون .. وما سلطت

عليهم سوى أنفسهم . وما كان إلا نذير الله الذى لم تفتح له القلوب والآذان .

« ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءتة فإن الله شديد العقاب » ...

( البقرة : ٢١١ )

« ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » ... ( البقرة : ١٠٨ )

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من

الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل

الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ... ( الأعراف : ١٧٥-١٧٦ )

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس .

ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا - وأحل الله البيع وحرم الربا - فمن جاءه موعظة

من ربه فاتمى فله ما سلف ، وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها

خالدون . يحق الله الربا ويربى الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » ...

( البقرة : ٢٧٥-٢٧٦ ) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا - إن كنتم مؤمنين - فإن

لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله » ... ( البقرة : ٢٧٨-٢٧٩ )

« والعصر إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ،

وتواصوا بالصبر » ... ( سورة العصر )

\*\*\*

والآن نأخذ فى عرض أقوال الشهود عن بروز آثار الحضارة المادية وتضخمها فى الأمم

التي وصلت إلى قمة الحضارة . . فنستوفى بهذا عناصر المأساة الأربعة - كما أشرنا إليها فى

مقدمة هذا البحث .

وقد أخذنا شهودنا من درجات متفاوتة . ومن يثبات مختلفة : منهم العالم المحقق ،  
المؤمن بالعلم ، المعتمد عليه في مواجهة المأساة . . ولا سواء . . ومنهم الفيلسوف الذي لا يؤمن  
بالدين ، ومع ذلك يرى على ضوء العقل الخطر الذي تتردى فيه البشرية . . ومنهم الباحث  
المؤمن بالدين وبالعقل وبالعلم وبفطرة الإنسان ، العارف في الوقت نفسه بإمكان كل من هؤلاء  
في مجال المعرفة ومجال العلاج . . ومنهم الطيبة التي تقدر جدية الموضوع ، فتعالجه بالجد الذي  
يستحقه . ومنهم الصحفي الذي لا يعنيه من المسألة إلا العرض الصحفي والتشويق والإغراء .  
وقد اكتفينا بهذه الشهادات من عشرات مثلها ، لأنه لا سبيل لإثبات كل الشهادات ،  
واستدعاء كل الشهود ، في فصل من كتاب !

\*\*\*

يبدأ الدكتور الكسيس كاريل شهادته بالكلام عن مخالفة البشر لما يسميه  
« القوانين الطبيعية » - ونسميه نحن « قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها » -  
والمواقب التي لا بد أن يلقاها من يخالف هذه القوانين الصلبة التي لا تلين ، ولا تترك  
مخالفيها بلا عقوبة ، ثم يأخذ في بيان ما حل بالبشرية فعلا من هذه العقوبة :  
« قبل أن أبدأ هذا الكتاب ، كنت أدرك تماما صعوبة هذا العمل بل استحالة  
تقريبا . ولكنني شرعت فيه ، لأنني كنت أعلم أن شخصا ما لابد سيؤديه . . لأن الناس  
لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي ، لأنهم آخذون في التدهور  
والانحطاط . لقد فتنهم جمال علوم الجاد . إنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض  
للقوانين الطبيعية - وهي قوانين أكثر غموضا وإن كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين  
الدينية - كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون  
أن يلاقوا جزاءهم . ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الديني ، ولأثرهم

أبناء آدم ، ولذاتهم الداخلية ؛ وتلك التي تتصل بأنسجتهم وعقولهم . فإن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا ، فإذا انحط وتدهور ، فإن جمال الحضارة ، بل حتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى . . لهذه الأسباب كتبت هذا الكتاب « ... ( ص ١٠-١١ )

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير ، التي يفرضها عليه المجتمع العصري .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره وعرفنا أنه لا يستطيع تكيف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقها التكنولوجيا ، وأن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وأن العلم والميكانيكا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن وحدنا المسؤولون . لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمسموع . لقد نقضنا قوانين الطبيعة ، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً .. إن مبادئ « الدين العلمى » والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية » .. فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياح الأرض المحرمة .. هي إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار . لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا . قبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر . ولقد أصبح الفرد ضيقاً ، متخصصاً ، فاجراً ، غيبياً ، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته <sup>(١)</sup> ... ( ص ٣٢٢ )

« إن الصفة الغالبة على الفرد في الحضارة العصرية هي الإفراط في النشاط الذي يوجه كله نحو الجانب العملى من الحياة . كذا يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء . وأيضاً بنوع من الضعف العقلى ، الذى يتركه تحت تأثير البيئة التى يتفق وجوده فيها .. ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق » ... ( ص ٣٦ )

---

(١) سبق أن اقتطفنا هذا النص في الفصل السابق وأثبتناه هنا لضرورة دلالة .

« يبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة. ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسؤولين عن الشؤون العامة » ... (ص ٣٧)

« إننا قلما نشاهد أفرادا يتبعون مثلاً أخلاقياً أعلى في تصرفاتهم في المدنية العصرية » ... (ص ١٦٠)

« إن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائي بالجمال في عملهم أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك . إن الصناعة - بشكلها الحالي - حرمت العامل من الابتداع والجمال » ... (ص ١٦٢)

« إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفي والجمالي أو الديني يخلق أشخاصاً في المرتبة الدنيا ذوي عقول ضعيفة غير سليمة . وبالرغم من أن التعليم العقلي يهيأ الآن لكل فرد ، إلا أننا مازلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص في كل مكان » ... (ص ١٦٨)

« فأكثر الناس تمديننا يظهرون شكلاً بدائياً فقط من الشعور . إنهم قادرون على العمل السهل ، الذي يؤمن حياة الفرد في المجتمع العصري . إنهم ينتجون ويستهلكون ويرضون شهواتهم الفسيولوجية . وهم أيضاً يسرون بمشاهدة المباريات الرياضية ، والأفلام السينمائية الصبغانية الخشنة . كما يسرون حينما ينتقلون بسرعة من مكان إلى آخر بدون بذل أي جهد ، وحينما يتطلعون إلى الأشياء السريعة الحركة . إنهم ناعمون ، عاطفيون ، شهوانيون ، قساء ، مجردون من الإحساس الأدبي والديني والشعور بالجمال » ... (ص ١٦٩)

« إن عدم التناسق في دنيا الشعور ظاهرة مميزة لعصرنا » ... (ص ١٧٠)

« في استطاعة التفكير أن يولد أمراضاً عضوية بصفة عامة . ومن ثم فإن عدم

استقرار الحياة العصرية ، والأنفعال الدائم ، وانعدام الأمن ، تخلق حالات من الشعور تجلب الاضطرابات العصبية والعضوية للمعدة والأمعاء . كذا نقص التغذية ، وتسرب الجراثيم المعوية إلى الدورة الدموية . . . والتهاب الكلى وما يصحبه من أمراض الكلى والمثانة إن هي إلا النتائج البعيدة لعدم التوازن العقلي والأدبي . . . ومثل هذه الأمراض تكاد تكون غير معروفة في الجماعات التي تحيا حياة بسيطة ، وليست على القدر الذي ذكرناه من الانفعال ، كما أن القلق فيها غير دائم . . . وبالمثل فإن الأشخاص الذين يحافظون على سلام ذاتهم الباطنية ، وسط ضوضاء المدينة الحديثة محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعضوية » . . . ( ص ١٧٧ ) .

« يجب أن يظل النشاط الفسيولوجي خارج حقل الشعور . إذ أنه لا يلبث أن يصاب بالاضطراب حينما نوليّه اهتمامنا . ولذلك فإن « التحليل النفسي » حينما يوجه عقل المريض نحو نفسه ، قد يزيد من حالة عدم التوازن . ومن ثم فإنه من الأفضل أن يهرب الإنسان من نفسه ببذل جهد لا يشتت عقله ، بدلا من الاستغراق في تحليل نفسه . . . إذ أننا حينما نوجه نشاطنا نحو غاية محددة ، نجعل وظائفنا العقلية والعضوية كاملة التناسق . لأن توحيد الرغبات وتوجيه العقل نحو غاية واحدة ينتج ضربا من السلام الداخلي . ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلما يشتتها بالعمل . . . ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بتأمل جمال المحيط أو الجبال والسحب ، وروائع ما أنتجه الفنانون والشعراء ، والمبادئ السامية التي تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، والعمليات الحسابية التي تعبر عن القوانين الطبيعية . . . وإنما يجب عليه أيضاً أن يكون الروح التي تكافح لبلوغ مثل أدبي عال ، وتبحث عن النور في ظلمات هذا العالم ، وتسير قدما في طريق الدين ، وتنفيذ نفسها لكي تفهم الأساس

غير المنظور لهذا العالم . إن توحيد نشاط الشعور يؤدي إلى تناسق أعظم بين الوظائف العضوية والعقلية .

ولهذا ندر أن توجد الأمراض العصبية وأمراض التغذية ، والإجرام ، والجنون ، بين الجماعات التي نما فيها الشعور الأدبي والعقلي في وقت واحد، كما يكون الفرد أكثر سعادة في مثل هذه الجماعات » ( ص ١٧٧ - ١٧٨ )

« إن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي، وترجع القيمة العقلية والروحية المنحطة لأغلب بني الإنسان - إلى حد كبير - إلى النقائص الموجودة في جوهم السيكلوجي . إذ أن تفوق المادة ، ومبادئ دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق - كما عرقتها الحضارة المسيحية أم العلم الحديث<sup>(١)</sup> . كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التي لها شخصيتها وتقاليدها الخاصة ، تحطمت بفعل التغيرات التي طرأت على عاداتها . وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشارا واسع المدى ، كذا الأدب الرخيص ، والراديو ودور السينما . . ومن ثم فإن ازدياد الطبقة الغبية آخذ في الازدياد أكثر فأكثر ، بالرغم من كمال المناهج التي تدرس في المدارس والكليات والجامعات . . ومن العجيب أن بلادة الذهن توجد غالبا حينما تتقدم المعرفة العلمية !

« إن أطفال وطلبة المدارس يكونون عقلهم من البرامج السخيفة التي توضع لوسائل

---

(١) هذا التقرير عن أن المسيحية أم العلم الحديث يخالف الواقع التاريخي . فالمسيحية - كما عرضتها الكنيسة - وقفت وقفة عنيدة في وجه المناهج العلمية الحديثة التي جاءت إلى أوروبا من العالم الإسلامي . وكانت هذه الوقفة من الأسباب الأصلية للفصام التكد في أوروبا بين العلم والدين ، وبين الدين والحياة أيضاً . . ( يراجع في هذه القضية كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف محمد أسد ، وترجمة عمر فروخ ) .

التسلية العامة . ومن ثم فإن البيئة الاجتماعية تناهض نمو العقل بكل قوتها بدلا من أن تعمل على هذا النمو » . ( ص ١٨٤ )

« كما أن الشذوذ الجنسي آخذ في الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانبا ، وأصبح المحللون النفسانيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية . ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب . والعدل والظلم . فالجرمون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان ، وليس هناك من يبدى اعتراضا على وجودهم . . . ولقد جعل المساواة الدين شيئا بالتموين لكل فرد منه قسط معين . وحطموا الأسس الغامضة ، ولكنهم لم ينجحوا في اجتذاب القوم المصريين . ومن ثم فإنهم يعطون عبثا أصحاب الأخلاق الضعيفة في كنفائهم نصف الفارغة كل أسبوع .

«إنهم قانعون بدور رجل البوليس الذي يؤدونه . فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم ، لكي يحفظوا إطار المجتمع الحالى ، أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعل الساسة » . . . ( ص ١٨٦ )

« ليس العقل قويا كالجسم . ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عددا من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها ، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم . . . ويقول س . و . بيرس : « إن شخصا من كل ٢٢ شخصا من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر » . . . وفي الولايات المتحدة تبنى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين . ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية ، وما يماثلها من المؤسسات ، حوالى ستة وثمانين ألف حالة جديدة . فإذا استمر عدد المجانين في السير

على هذا المعدل ، فإن حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكلية سوف يدخلون إلى المصحات عاجلا أو آجلا !

« فى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠.٠٠٠ مجنون، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١.٥٨٠، وكان عدد مطلق السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠.٩٣٠، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المستشفيات الخاصة . وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠.٠٠٠ شخص ضعاف العقول . ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠.٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء ، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة ، والإفادة مما يتلقون من علم .. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقليا أكثر من ذلك بكثير . ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية ، مصابون باضطرابات نفسية <sup>(١)</sup> . وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر

للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع

العصرى . فإن أمراض العقل خطر داهم : إنها أكثر خطورة من السل والسرطان

وأمراض القلب والكلى . بل والتيفوس والطاعون والكوليرا . فيجب أن يحسب

للأمراض العقلية حسابها لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف حتما

التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء <sup>(٢)</sup> حاليا .. على أنه يجب أن يكون مفهوما أنه

لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التى يوجدون بها بين أفراد الشعب !

(١) هذه كلها إحصاءات قديمة . وقد تضاعفت أكثر من مرة فى هذه الفترة .

(٢) إن الذى يقلق بال الرجل هو فقط الخطر على الأجناس البيضاء .. وهذه إحدى عقايا العقلية الغربية فى شقوة البشرية . ولم يستطع الرجل العالم الواسع الأفق أن يتخلص منها !

صحيح أن عددا كبيرا ممن يعانون من النقائص العقلية موجود في السجون . بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة ، ما زالوا مطلقى السراح .

« ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذى تعاني منه المدنية المصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقا إلى تحسين صحتنا العقلية » ... ( ص ١٨٧-١٨٨ ) .

« هناك أشكال معينة من الحياة المصرية تؤدى مباشرة إلى الانحلال كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس الأبيض » ... ( ص ٢٦٤ ) .

« إن فى استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عما إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة فى الرجال المصريين ! بل إن بعض المراقبين يرتابون فى حقيقتها » فتودور دريزر « يعتبرها أسطورة خرافية ! والحقيقة أن سكان المدينة الحديثة يظهرون تشابها كبيرا فى ضعفهم العقلى والأدبى . فمعظم الأفراد ينتمون إلى طراز واحد . إنهم خليط من الأشخاص مضطربى الأعصاب بليدى الشعور ، مغرورين معدومى الثقة بأنفسهم ، أصحاب قوة عضلية ، وإن كانوا سريعى التعب . يعانون حدة الدافع الجنسية برغم ضعفهم وشذوذهم أحيانا » ... ( ص ٣١٦ ) .

\*\*\*

هذه فقرات مقتضبة من شهادة دكتور كاريل خاصة « بالإنسان » عامة فى الحضارة المصرية . . . وهناك جانب آخر أحببنا أن نفردده وحده . وهو شهادته فيما يختص بقضية المرأة ، وعلاقات الجنسين فى هذه الحضارة ، وأخطارها على وجود الجنس البشرى ، وعلى مستواه العقلى والأدبى .

ونحب أن ندعه هو يدلي بشهادته « العلمية » دون تعليق :

« علينا أن نستوثق من الكيفية التي ستؤثر بها طريقة الحياة في مستقبل الجنس . لقد كانت استجابة النساء للتعديلات التي أدخلتها الحضارة الصناعية على عادات الأسلاف سريعة قاطعة ، إذ نقص معدل المواليد فوراً . وقد تبين أثر ذلك بوضوح ، كما لمست نتائجه الخطيرة في الطبقات الاجتماعية وفي الأم التي سبقت غيرها في الانتفاع بالتقدم الذي حققته - إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة - بتطبيق الاكتشافات العلمية . فالتعقيم الاختياري ليس جديداً في تاريخ العالم . فقد عرف في مرحلة معينة من مراحل المدنية السابقة . . إنه ظاهرة علمية نعرف دلالتها<sup>(١)</sup> » ... ( ص ٣٧ ) .

« إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم . إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . . إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها ؛ ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها البيض . . . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، وأن يمنحاً سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة . . والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي . فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن

(١) لعله يشير إلى ما وقع من هذا في أواخر أيام الحضارة الإغريقية ، وأواخر أيام الحضارة الرومانية . وأدى في كلتا الحالتين إلى سقوطها واندثارها !

مضطرون إلى قبولها كما هي . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهم ، دون أن يحاولن تقليد الذكور . فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال . فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة » ... (١١٤) .

« إن الأب والأم يساهمان بقدر متساو في تكوين نواة البويضة ، التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد . ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النووية كل البروتوبلازم المحيط بالنواة . . . وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب في تكوين الجنين » ... (ص ١١٥) .

« إن دور الرجل في التناسل قصير الأمد . أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر . وفي خلال هذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيميائية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص . وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفرزها أعضاء الجنين . وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطيرة . لحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريباً من الأب مثلما ينشأ من الأم . فإن مخلوقاً من أصل غريب - جزئياً - قد اتخذ له مأوى في جسم المرأة . فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل . وقد تتسم المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها ، كما أن أحوالها الفسيولوجية والسيكولوجية تعدل به دائماً . . . وعلى أي حال يبدو أن النساء - من بين الثدييات - هن فقط اللائي يصلن إلى نموهم الكامل بعد حمل أو اثنتين . كما أن النساء اللائي لم يلدن لسن متزنات توازننا كاملاً كالوالدات . فضلاً عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن . . . صفوة القول أن وجود الجنين ، الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم ، بسبب صغرها ، ولأنها - جزئياً - من أنسجة زوجها ، تحدث أثراً كبيراً في المرأة . إن أهمية وظيفة الحمل

والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية . مع أن هذه الوظيفة لازمة لا كتمال نمو للمرأة . . ومن ثم فمن سخط الرأي أن نجعل المرأة تنكر للأمومة . ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادى ، ولا أن تبث في نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبث فيهم . . يجب أن يبذل للربون اهتماما شديدا للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى . كذا لوظائفها الطبيعية . فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين . ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين »

( ١١٦-١١٧ )

« أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال ، وصفاتهم النفسية والعضوية ؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لا تشتمل على الحمل فقط . بل أيضا على رعاية صغارها » . ( ٣٦٨-٣٦٩ )

وأخيرا :

« من المعروف أن الإفراط الجنسى يعرقل النشاط العقلى . ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو ، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية ، حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته . . ولقد أكد فرويد ، عن حق ، الأهمية القصوى للدوافع الجنسية فى وجوه نشاط الشعور . ومع ذلك فإن ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص . ومن ثم يجب ألا نعلم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين ، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا ، وسيطرة على أنفسهم . . وبينما يصبح الضعفاء ، المعتلوا الأعصاب ، غير المتزنين ، أكثر شذوبا عندما تكبت شهواتهم الجنسية ، فإن الأقوياء

يصيرون أكثر قوة ، بممارسة هذا الشكل من الزهد<sup>(١)</sup> ... ( ١٧٤ ص )



ولناخذ شهادة « ول ديورانت » الكاتب الأمريكي المتفلسف .. وهو رجل لا يمكن أن يقال إنه من أعداء هذه الحضارة . فهو شديد الإعجاب بالتقدم الذى تمثله هذه الحضارة فى مجموعها . وهو يبدو معارضا للدين فى جملته ، كما أنه ظاهر العداء للإسلام بصفة خاصة .. وقد نشرت له مؤسسة فرنكايين ترجمة جزء من كتابه « مباهج الفلسفة » ونشرت له جامعة الدول العربية ترجمة أجزاء من كتابه قصة الحضارة . ويستطيع قارئ اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الإعجاب بهذه الحضارة فى جملتها ، كما يلاحظ موقفه من الدين جملة ، وعداءه الظاهر للإسلام خاصة .

ومع هذا كله فهو يؤدى هذه الشهادة عن هذه الحضارة فى كتابه « مباهج الفلسفة » :

« وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطيرة ، لأننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الأغراض . وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى ؛ وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقنا ؛ ويبدو العالم كله مستغرقا فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك للمشكلة التى أفلقت بال سقراط ، نعنى : كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماكن من جهة ، وبهذا الجنون الثورى من جهة

---

(١) هذا مايقوله عالم متخصص . أما جهلاء الصحفيين عندنا ، وكتاب القصص الجنسى ، ومجلات الإغراء الرخيص ، فتوحى كلها للشبان أن يفرغوا طاقهم الجنسية ليحصلوا على الراحة والاستقرار !!!

أخرى ، حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض ، وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقى بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب . وعندنا مئة ألف سياسي ، وليس عندنا « رجل حكم » واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل . ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ، ولم نفكر في ذلك ، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة . ولن ننجو منها بغير الحكمة » <sup>(١)</sup> ... ( ص ٦-٧ ج ١ )

« واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل ، وخلقت موقفاً لم يكن آباءنا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل . ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة ١ » ... ( ص ١٢٥ ج ١ )

« فحياة المدنية تفضي إلى كل مثبط عن الزواج ، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أدائها . ولكن النمو الجنسي يتم مبكراً

---

(١) يلاحظ هنا اعترافه بأن حرارة الإيمان الديني قد أوجدت « اتزان العقل » وأن هذا الاضطراب كله الذي يصفه إنما نشأ من تنحية الزواجر العلوية .. ومع هذا فهو يهاجم الدين جملة والإسلام صفة خاصة في ثنايا كتابه ١ . وبماذا يريد أن يستبدل الدين ؟ بالفلسفة أو كما يسميها الحكمة ١ والأرض لم تخل من الفلسفة في أي عصر ، ولكنها لم تقم أبداً مقام الإيمان الديني في قيادة المجتمع إلى التوازن ، وإلى التشاى الخلق . كذلك يلاحظ تشبيهه المفروض للدين الذي شردوا عنه بالوثنية التي كانت قبل سقراط ، والتي انهارت فأنشأت لعصر سقراط تلك المشكلة التي يتحدث عنها . فالتسوية بين الديانات السماوية والوثنية الإغريقية لا تعبر إلا عن الهوى .

عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى . فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى ، فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا وغير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم ؛ وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعاً للسخرية ؛ ويختفى الحياء الذى كان يضاف على الجمال جمالا ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحققها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة من الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا ، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تميزت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى ، ولم يعد العالم المدنى يحكم به <sup>(١)</sup> « ... (ص ١٢٦-١٢٧) »

« ولنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولا عنه . ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فىنا من رغبة فى التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيننا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملل الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة ؛ وقد تتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان <sup>(٢)</sup> . وهذا هو رأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر .

---

(١) يلاحظ ميله - وهو أمريكى - إلى اعتبار قواعد المذهب الماركسى فى التفسير الاقتصادى للتاريخ . وقد دفعه هروبه من الدين إلى هذا المأزق . فهو لا يريد أن يعترف أن شرودم عن الدين هو الذى أدى بهم إلى هذه الفوضى .. إنما هو مجرد الانتقال من العهد الزراعى إلى العهد الصناعى !!!

(٢) هذا فى الحقيقة هو السر . « فى عالم خلقه الإنسان » فى منزل عن الله وهدهد ! وهذا هو سبب البلاء .

غير أنه من المنجبل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية ، وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين ، وهم في حتمى الفوضى الصناعية ، من حتمى الزواج ورعايته للصحة .

« ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكنن في ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا باحدث التحسينات ، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها » ... ص ( ١١٧ - ص ١٢٨ )

« وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة ، قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات - وقد أكسبهم المال جرأة - أن الدين يشهر بملاذم التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفا للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديما يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنبا ؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها ؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة » ... ( ص ١٣٤ )

« وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام التكويني في ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الجنود الوحشية والإباحية . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا

بؤرة للفساد الخلقى . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية ، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية<sup>(١)</sup> . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى . وأصبحت الحكومات في واد والشعب في واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح ، بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، وأو إلى طفيليات فاسدة . ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية في الماضي<sup>(٢)</sup> وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة » ... (ص ١٣٥ - ١٣٦)

« لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قل أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمناً مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة ، مما يجعل الخطر جاثماً كل لحظة . أما الشباب الذي أصبح أكثر إقداماً وأشد غروراً من قبل ، فهو عاجز مادياً ، وجاهل اقتصادياً إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفاً ( وقد مرت السنوات ) ومع ذلك لم تمتلئ »

---

(١) يعترف هنا بسوء الأثر الذي أحدثته تحطيم الإيمان بالعناية الإلهية وانتزاع سند العقيدة الدينية من الضمير . بينما هو في كتابه كله لا يستهدف غرضاً أظهر من تحطيم الإيمان بالعناية الإلهية وانتزاع سند العقيدة الدينية من الضمير ، والزراية على الإيمان بالغيب وعلى الزواج العلوية !!!

(٢) يشير إلى وسائل منع الحمل والوقاية من الأمراض السرية . الأمران اللذان وفرتهما الحضارة !

الجيوب بما يكفى للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل ( وقد مرت سنوات ) فيجد الجيوب عامرة ، فيحتفل الزواج بموت الحب .  
« حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية . فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشبان في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها ، وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر مترددا ، إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإفناق عليهما معا في مستواهما الحاضر من المعيشة ؟

« وأخيرا تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا في كنيسة . لأنهما من أحرار الفكر الذين ألدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جائما على إيمانهم المهجور أثر في قلوبهما . إنهما يتزوجان في قبو المكتب البلدى ( الذى يفوح منه عبير الساسة ) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف ، بل بعقد من المصلحة ، لها الحرية في أى وقت في التحلل منه . فلا مراسم مهيبية ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة في الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكا ، ويتوجهان إلى البيت في صخب .

« إنه ليس بيتا ! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشء وسط الحشائش النضرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لها الزهور والخضروات التى يشعران بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلا كأنهما في زنزانة سجن ، في

حجرات ضيقة لا يمكن أن تستقيهما فيها طويلا ، ولا يعنىان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئا روحيا كالبيت الذى كان يتخذ مظهرا ويكسب روحا قبل ذلك بعشرين عاما ( الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩ ) بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ما تجده فى مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع ، لا ينبت لها الصيف الزرع النضر بل سيلا من المطر . ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح فى السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر ، بل المتاعب والذكريات الحزينة .

« وتصاب المرأة بخيبة أمل . فعلى لا تجد فى هذا البيت شيئا يجعل جدرانها تحتل فى الليل والنهار ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تهجره فى كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويُنيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول فى أنحاء هذا البيت ، يعزى شعوره بيناته وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبا عاديا تلك العلاقات غير البريئة التى كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد فى هذا البيت ، وليس فيه ما ينمو ، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع ، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة فى المدينة ؟ والقفظة فيما يظنان أفضل جوانب الحب ... فيعتزمان منع النسل ... إلى أن يقع بينهما الطلاق !

« ولما كان زواجهما ليس زواجا بالمعنى الصحيح - لأنه صلة جنسية لارباط أبوة -

فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنوع ، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته « ... (ص ٢٢٣ - ٢٢٥) .

« ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أونريده . فنحن غارقون فى تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها . وأى شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت فى مدتنا الكبرى فى الاختفاء ، فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصودا . وسيزداد الزواج الحر ، مباحا كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً فى كل طبقة ، يضحي الحمل أمراً عارضاً فى حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل رعاية البيت . . وهذا كل شيء! <sup>(١)</sup> « ... (ص ٢٣٥ - ٢٣٦)

\*\*\*

---

(١) يلاحظ أن هذا كله قد تم فى أمريكا كما توقع الكاتب ، وأن هذا البلاء يزحف علينا زحفاً نكدأ كئيباً .

والآن نسمع شهادة الأستاذ أبي الأعلى المودودي في بعض جوانب هذه الحضارة ،  
وما أنشأته من آثار تنطوي على تهديد مدمر للحياة الإنسانية ذاتها فضلا على  
الخصائص الإنسانية .

من كتاب ” الحجاب “ :

« إن أساطين الفلسفة والأدب وأقطاب العلوم الطبيعية الذي رفعوا لواء الإصلاح في  
القرن الثامن عشر ، كانوا - كما سبق لنا الإشارة إليه - يجابهون نظاما للتمدن فيه أنواع من  
القيود والسدود ، وفيه صلابة من غير مرونة ، وعسر من غير يسر ، طافحا بالتقاليد التي  
لا يقبلها الطبع والضوابط الجامدة ، والطرق المناقضة للفطرة والعقل . وزاد طينه بلة انحطاط  
القوم المتواصل على طول القرون فجعله عقبة كأداء في كل طريق للرقى . فبجانب كانت  
النهضة العلمية والعقلية الجديدة تبعث في نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى التقدم  
والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتي . وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الأمراء والزعماء  
الدينيين تبالغ في شدم بالأغلال التقليدية . فمن الكنيسة إلى الجندية والقضاء ، ومن قصور  
الإمارة إلى المزارع ودور التجارة .. كل شعبة من شعب الحياة ، وكل مؤسسة للتنظيمات  
الاجتماعية ، كانت تجري على نظام يتيح لبعض الطبقات المخصوصة بحجة امتيازاتها القديمة  
وحقوقها المتوارثة ، أن تعسف وتجور على من لا ينتمى إليها من العاملين الناهضين ،  
فتذهب بثمار أعمالهم ، وتستأثر بنتائج مواهبهم وكفاءاتهم . فكل محاولة يقوم بها  
القائمون لإصلاح تلك الحال كانت تخيب وتفشل ، بإزاء أثرة الطبقات المسيطرة  
وجهاالتها ..

« لهذه الأسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للإصلاح تثور في نفوسهم مع الأيام

ثائرة الانقلاب الجامعة ، حتى غلبت عليهم وعمتهم ، آخر الأمر ، نزعات البغى والثورة على هذا النظام الاجتماعى بجميع شعبه وأجزائه .. وراج بين الناس نظرية متطرفة فى الحرية الشخصية ، ترمى إلى إعطاء الفرد الحرية التامة ، والإباحية المطلقة بإزاء المجتمع . فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق فى عمل ما يشاء ، والحرية الكاملة فى ترك ما يشاء ، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية .. الخ » ( ص ٦٠ - ٦١ ) .

« من غرائب الاتفاق أنه قد واثت هذا الانقلاب الفكرى - وهو فى صدر شبابه - أسباب تمدنية أخرى . ففى هذا العصر قامت الثورة الصناعية الشهيرة ، وأعقبها تغيرات هامة فى الحياة الاقتصادية ، كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عون على تحويل وجهة سير الاجتماع الحديث إلى حيث تريد الآداب الانقلاية أن تحولها . وذلك أن تصور الحرية الشخصية ، الذى نشأ عليه النظام الرأسمالى ، جاءت الاختراعات الميكانيكية ، وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعى ( Mass Production ) تحمكه وتقويه . فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية كبرى ، وتحولت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة إلى مدن عامرة ، أصبح ينجر إليها من القرى والأرياف أضعاف الملايين من النفوس . وغلت تكاليف الحياة غلاء فاحشا ، وارتفعت أسعار الحاجيات للحياة ، من المطعم والملبس والسكن ، إلى ما فوق طاقة العامة ، زد على ذلك أن أضيف إلى حاجات الحياة مالا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة لأسباب راجع بعضها إلى ارتقاء التمدن وبعضها إلى مساعى أهل الثروة .

« ولكن النظام الرأسمالى لم يوزع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المتع واللذات ، وأدوات الزينة والزخرفة التى أدخلها فى لوازم الحياة ، بل هو لم

يهيئ للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة الحقيقية - وهي السكنى والطعام واللباس - في تلك المدن التي قد زج بهم إليها ..

« كان من نتائج ذلك كله أن أصبحت المرأة كلاً على زوجها ، وأصبح الولد عبثاً على أبيه ، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه ، فضلاً عن أن يعول غيره من المتعلقين به . وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع عاملاً مكتسباً . فاضطرت جميع طبقات النساء - من الأبنكار والأيامى والثيبات - أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويدا .

« ولما كثر بذلك اختلاط الصنفين ، واحتكاك الذكور والإناث ، وأخذت تظهر عواقبه الطبيعية في المجتمع ، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية ، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق ، فهدأ من قلق الآباء والبنات ، والإخوة والأخوات ، والبعولة والزوجات ، وجعلوا نفوسهم المضطربة تطمئن إلى أن الذي هو واقع أمام أعينهم ، لا بأس به ، فلا يوجسوا منه خيفة ، إذ ليس هبوطاً وتردياً ، بل هو نهضة وإرتقاء ( Emancipation ) وليس فساداً خلقياً ، بل هو عين اللذة والمتعة التي يجب أن يقتنيها المرء في حياته ، وأن هذه الهاوية التي يدفع بهم إليها الرأسمالى ، ليست بهاوية النار ، بل هي جنة تجري من تحتها الأنهار<sup>(١)</sup> .

« وما وقف الأمر عند هذا الحد . بل جاء النظام الرأسمالى الذى دفعت قواعده على هذا التصور للحرية الشخصية ، فمنح الفرد حقاً مطلقاً من كل قيد أو شرط في اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق . وتبعته فلسفة الأخلاق فأباحته له كل وسيلة يمكن أن

---

(١) كأنما هذا الرجل الفاضل العميق النافذ يصف ما تقوم به صحافة وكتاب قصة وأجهزة توجيهية كثيرة في بلادنا ، في دأب وإصرار . . إن بروتوكولات صهيون تقول : إنها ستقوم بهذا التدمير في جميع الأمم ، لتسقط في يد ملك صهيون في النهاية !

تتخذ لجمع الأموال ، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مهلكة أفراد كثيرين .. وبذلك تألف نظام التمدن ، من أوله إلى آخره ، على صورة تؤثر الفرد على الجماعة من كل وجهة ، وليس فيها ضمان للمحافظة على مصالح الجماعة بإزاء أثره الفرد . فانفتحت السبل على إخوان الطمع والأثرة ليغيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاءون . فعمد هؤلاء إلى الفرائز الإنسانية يتحسسون فيها مواطن الضعف والخلل ، وراحوا يتفننون في استغلالها لأغراضهم . فقام واحد ، وروج في الناس سيئة الخمر جلبا للثروة إلى جيبه ، ولم ينهض منهم من ينقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون . وقام آخر وابتلى خلق الله بآفة الربا ، ونصب شبكته في القاصية والدانية ، وما هنالك من يدفع عن دماء الناس ضر هذا العلق ، يل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتاكة ، كي لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه . وجاء ثالث وأشاع في المجتمع طرقا مبتكرة للقمار ، حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عنصره ، وما ثمة من يتقدم لحفظ الحياة الاقتصادية من هذه الحمى المحرقة .

« وما كان من الممكن في هذا العصر من الأنانية والبغى والعدوان الفردى ، أن يعزب عن إخوان الأثرة والطمع ، ذلك الضعف الإنساني الأكبر .. الشهوة الجامحة .. التي يمكنهم باستئثارها جلب كثير من النافع . فلم يقتهم ذلك فعلا ، بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة في الإنسان ما وسعهم وما أمكنهم . إذ أصبح مدار العمل والعناية كلمة في المراقص والمسارح ومراكز إخراج الأفلام ، على أن تستخدم لها الغيد الحسان ، ويعرضن على المنصة في صورة أكمل من التبرج ، وفي هيئة أقرب إلى العرى ، ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إضرار نار الشهوة فيهم .. جاء قوم فهدوا الأسباب لإكراء النساء ، وتقدموا بحرفة البغاء إلى أن أصبحت تجارة دولية منظمة .. وجاء

آخرون فتفتنوا في صنع أدوات الزينة والزخرفة ، ثم عموها في المجتمع ليزيدوا من غريزة التبرج التي جبلت عليها المرأة إلى أن يجعلوها فيهن هوساً ؛ ويجمعوا بذلك الذهب والفضة ملء أكفهم . . وجاءت فئة أخرى فاخترعوا للملابس النساء أزياء كاشفة مغرية ، واستخدموا كل فائنة الجمال لتلبسها وتغشى بها النوادي والحفلات ، حتى يقبل عليها الشباب ويفتنوا بها ، فتغرم الفتيات بتلك الأزياء الجديدة من اللباس ، وتربح تجارة مخترعيها . وتذرع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية ، والمقالات الخليعة ، إلى استدراج الأموال ؛ وأخذوا كذلك يملأون جيوبهم بإصابة العامة بالجذام الخلقى . حتى انتهت الحال ، على مضي الأيام ، إلى أن لم تبق ناحية من نواحي التجارة خالصة من عنصر الإغراء . وها أنت ذا صرت لا ترى في زمانك هذا إعلاناً من الإعلانات التجارية في الجرائد والمجلات ، إلا وسمته الملازمة البارزة ، صورة امرأة عارية أو في حكم العارية ، كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود المرأة <sup>(١)</sup> ، ولا تجد كذلك فندقاً من الفنادق ولا مقهى ، ولا صالة عرض إلا وقد استخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسي في الرجال <sup>(٢)</sup> .

« وكان المجتمع المسكين المخذول لا يملك - حيال ذلك كله - إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه . وهي أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه ، ويتحفظ من استيلاء غريزة الشهوة عليه . . ولكن النظام الرأسمالي لم يكن من الضعف والهوان بحيث يمكن رد حملته بسهولة . وإنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداة ، وعسكر

(١) أقرأ هذا ، وأقرأ صفحات « المرأة » في صحافتنا كلها ، فأجد كأنما الرجل يصف ما عندنا ، لا ما هو واقع في ذلك العالم الرأسمالي ! وأعود إلى « بروتوكولات صهيون » فأجد فيها النص على اتباع هذه الخطة . وأعلم - إذن - من أين تستق صحافتنا مناهجها ؛ وما هي الخطة التي تنفذها في مجتمعنا ! ولحساب من تنفذ هذه الخطة !

(٢) تراجع الهامشة السابقة III

شيطاني عرصرم ، من العلوم والآداب ، كانا لا يزالان يعملان عملهما في نسخ النظريات الخلقية ومحوها من النفوس<sup>(١)</sup> .

« ومن براعة القاتل - والله - أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه » ( ص ٨٢ - ٨٧ ) .

... « هذه حال المرأة عندهم .. وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلابية من الجمال النسوي إلا شوقاً وطموحاً ونهمة . لأن نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة في الصدور ، لا تخمد بكل منظر جديد من الخلاعة والسفور ، بل تزداد لهيباً ، وتتطلب منظراً آخر أكثر منه سفوراً وحسوراً وتكشفاً . ومثلهم في ذلك كمثل من تصيبه لقحة من السوم ، فيكاد لا يسكن ظمؤه . كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً وظماً . فهم دائماً في إعداد أدوات ، وتهيئة أسباب وظروف لإطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم ، ولا يهدأ لهم دون ذلك بال ، ولا هم يستقر لهم قرار . وما هذه الصور العارية ، وهذا الأدب المكشوف وهذه القصص الغرامية وهذه المراقص والمبازل ، والمسرحيات المشحونة بالانفعالات والنزعات العارمة .. ما هذه كلها إلا نماذج من جهودهم وحيلهم التي يتعاطونها لإخماد الشهوات الجامحة - ولكن في الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها - التي أجبها هذا المجتمع الماجن ، وتلك الحياة الاجتماعية الضالة ، في صدر كل فرد من أفرادهم .. ولكنهم سموها بالفن (Art) لإخفاء هذا الضعف الكامن في نفوسهم وفي حياتهم .

« ولا يزال هذا الداء الويل - من غلبة الشهوات البهيمية - يفخر في كيان الأمم الغربية ، ويتنقص من قوة حياتها بسرعة هائلة . والتاريخ يشهد أنه ما سرى هذا الداء في

---

(٣) تراجع الهامشة في الصفحة السابقة ١١١

مفاصل أمة ، إلا أوردتها موارد التلف والفناء . ذلك بأنه يقتل في الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه في هذه الحياة . وأنى للناس - لعمر الله - ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة ، التي لا بد لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير ، ما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب ، وتكون عواطفهم عرضة أبدا لكل فن جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة ، قوى التحريض ، ويكون الدم في عروقهم في غليان مستمر بتأثير ما حولهم من الأدب الخليع ، والصور العارية ، والأغاني الماجنة ، والأفلام الغرامية ، والرقص المثير ، والمناظر الجذابة من الجمال الأثوى العريان ، وفرص الاختلاط بالصنف الخالف . أستغفر الله - بل أنى لهم ولأجيالهم الناشئة - أن يحدوا في غمرة هذه المهيجات الجو الهادئ المعتدل الذي لا مندوحة عنه لتنشئة قوالم الفكرية والعقلية ، وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يغتالم غول الشهوات البهيمية ويستحوذ عليهم . وإذا هم وقعوا بين ذراعى هذا الغول فأنى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديهِ <sup>(١)</sup> ؟ » ( ص ٣٧-٣٩ )

« كان أكثر الأمم تأثرا بحركة منع التناسل هي فرنسا . فكانت نسبة المواليد فيها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالي ( عند نشوب الحرب العالمية الأولى ) ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات . وأما المقاطعات السبع والستون الباقية ، فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد . وكان معدل الوفيات في بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٧٠ و ١٣٠ بإزاء كل مئة مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ، ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج

---

(١) راجع شهادة الدكتور كاريل السابقة في ضرورة الكبت فترة ، ضامنا للنمو العقلي . على عكس ما يهتف به دعاة الإباحية والتحلل للشباب المسكين ؛ تنفيذا لبروتوكولات صهيون !

بين الموت والحياة ، أدرك أرباب فكرها بفتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين ، ورجال محاربين ، وأنه إن ضحى - على القرض - بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها في سبيل الدفاع عن الوطن في تلك الآونة ، فإنه لن تتمكن النجاة من كرة العدو الثانية . فكان من انبعث هذا الشعور في نفوس الفرنسيين أن تملك مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم ، وجعل الكتاب والصحفيون والخطباء - وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة - كلهم يهيئون بالناس ، من كل جانب ، وبصوت واحد : أن يكثرُوا من التوليد والتناسل ، ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج . ونادوا أن العذراء التي تتبرع برحمتها للتوليد خدمة للوطن ، تستحق العز والكرامة لا العتب والملامة ! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزا قويا لدعاة الحرية والإباحية ؛ فاتهزوا الفرصة السانحة ، وبشوا جميع ما كان قد بقي في جعبة فكرهم الشيطاني من النظريات ... ( ص ٧٢ - ٧٣ ) .

« إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم ، اضمحلال قواهم الجسدية ، وتدرجها إلى الضعف يوما فيوما . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ؛ وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم ، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي ، على فترة كل بضع سنين ، لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام . وهذا مقياس أمين يدلنا - كدلالة مقياس الحرارة في الصحة والتدقيق - على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية » <sup>(١)</sup> ... ( ص ١١٣ )

(١) ومثل هذه الظاهرة أخذت تتجلى في الشباب الأمريكي . فقد أعلن رئيس الولايات المتحدة أن أكثر من مليون شاب أمريكي لم يصلحوا للخدمة العسكرية من بين ستة ملايين تقدموا للتجنيد . وعزا ذلك إلى ضعف بنية الشعب الأمريكي بصفة عامة ، نتيجة لحياة الترف التي انغمس فيها .

« والنكبة الثانية العظيمة التي قد جرّها على التمدن الفرنسى طغيان الشهوة المطلقة ، ورواج الإباحية وقبولها : هى خراب النظام العائلى وتقوض بنيانه . . . »  
( ص ١١٤ )

« والأمة الفرنسية - كما أسلفت - لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاما متوالية . ففى بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد وفى الأخرى تتساويان ؛ وفى الثالثة لا تزيد على نسبة الوفيات إلا بقليل جدا . وبجانب آخر لا يزال عدد الجالية المهاجرين فى فرنسا ينمو ويكثر ، فكانوا قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الأصليين سنة ١٩٣١ . وإن استمرت الحال على ما هى عليه الآن ، فلا يستبعد أن تعود الأمة الفرنسية عند ختام القرن العشرين أقلية فى وطنها هى . . . »  
( ص ١٣٢ )

« ولا يحسن أحد أن الأمة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها فى هذا الباب . بل الأمر أن جميع الأمم التى قد آمنت بما ذكر آنفا من نظريات الأخلاق ومبادئ الاجتماع المتطرفة تماثلها وتجاريها فى تلك الحال . . . »  
( ص ١٢٣ )

« نشر فى جريدة ( Free Press ) بدوترويت ( Detroit ) الأمريكية مقال جاء فيه :

« إن ما قد نشأ بيننا الآن من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاشى العلاقات غير المشروعة - الدائمة والعارضة - بين الرجال والنساء ، يدل كله على أننا راجعون القهقري إلى البهيمية . فالرغبة الطبيعية فى النسل إلى التلاشى ، والجيل المولود حبله على غاربه ، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازماً لبقاء المدنية والحكم المستقل ، يكاد ينتفى

من النفوس . وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال لمآل المدنية والحكومة وعدم النصيح لهما « ... (ص ١٣٧)

« كل هذا الاتباع لأهواء النفس ، والنفور من تبعات الزوجية ، والتبرم بالحياة العائلية ، والارتخاء في الروابط الزوجية ، يكاد يذهب في المرأة عاطفة الأمومة الفطرية ، التي هي أشرف العواطف الروحية وأسماها في النساء ؛ والتي لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدن فحسب ، بل بقاء الإنسانية جمعاء . وما نجمت سيئات منع الحمل وإسقاط الجنين ، وقتل الأولاد ، إلا بتضروب هذه العاطفة في نفس المرأة . فالمعلومات عن تدابير منع الحمل موفورة لكل فتى وفتاة في الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من قيود القانون . والآلات والعقاقير المانعة للحمل معروضة للبيع في الحوانيت كالسلعة المباحة ، تستصحبها دائماً بنات المدارس والكليات - بله عامة النساء - لكي لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب ، إن نسي خدينها أن يأخذ أدواته معه . فيكتب القاضي « لندي » ( في محكمة دنفر ) :

« ٤٩٥ بنتا في السن الباكورة من بنات المعاهد الثانوية اعترفن لي بأنهن كن قد جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان ، إلا أنه لم تحمل منهن إلا خمس وعشرون . وأما الباقيات فلم بغضن من الحمل بمحض الاتفاق . ولكن كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمل . وهذه الخبرة قد عمت فيهن إلى حد لا يكاد الناس يصيبون في تقديره <sup>(١)</sup> » ... (ص ١٣٩)

(١) كتب القاضي هذا الكلام في سنة ١٩٢٢ . . وهذه الحالة تعتبر رجعية ! فالتقدم لا يتوقف ! ولعل هذا ما تريده بعض صحافتنا ، وتعتبره رسالة لها ولكنها ليست رسالة لحساب هذا البلد . وإنما لحساب صهيون ، وبرتوكولات صهيون ! . . إن واحدة من هذه الصحف تحدثت عن عدم كفاية الجيش التركي لأن طائفة « الدونما » الصهيونية قد أشاعت فيه الانحلال . فأصبح الضابط التركي يصلح =

« وقد ذكرت في مجلة أمريكية هذه الأسباب التي لا تزال تؤدي إلى رواج الفحشاء وقبولها هناك ، بالكلمات الآتية :

« عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهي جميعها في تسعير سعي لأهل الأرض : أولها الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية ( الأولى ) بسرعة عجيبة . . والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية في بابه . . والثالث انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء الذي يظهر في ملابسهن بل في عريهن ، وفي إكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام . . هذه المفاصد الثلاثة فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام . ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر .

---

فإن نحن لم نجد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردتهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمر ونساء ومشاكل ورقص وغناء . . .

---

( ص ١٢٩ ) .

\*\*\*

والآن نستمع إلى شهادة الطيبة التي تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبيد الرحمن « بنت الشاطئ » بعنوان « جنس ثالث في طريقه إلى الظهور » من مشاهداتها في « قينا » :

---

= لكل شيء إلا للقتال بعد ما ضيعته الصهيونية وعلمته التسكع في شارع أتاتورك لمغازلة الفتيات ! فما الذي تصنعه هذه الصحف في شعوبنا ؟ وهل تصنع إلا ما صنعه الدونما في تركيا ؟ لتلك يحق لنا أن نسأل : لحساب من تعمل وتنشر في شبابنا التميع والفساد ؟

« ... شامت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد ، لزيارة صديقة لي طيبة بإحدى ضواحي « فينا » - بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب - وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبى ، حين فتحت لي صديقتي باب بيتها معجلة ، وفي يدها « بطاطس » تقشره . ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لناخذ مجلسنا هناك .

« ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتني قائلة :  
« ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طيبة في المطبخ ، يوم الأحد !  
« قلت ضاحكة :

« أما العمل يوم الأحد فربما فهمته . وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا ما لم أنتظره .  
« فردت :

« لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب . فالعمل في عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالي بالمطبخ ، فلعلى لم أتجاوز به نطاق مهنتي . إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معى سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

« ولما سألتها عن سر هذا القلق - مع استقرار الوضع الاجتماعى للمرأة الغربية - أجابت بأن ذلك القلق ، لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور يبدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسولوجيا والبيولوجيا فى المرأة العاملة ، وذلك لما لحظوا من تغير بطيء فى كيانها ، لم يثر

الانتباه أول الأمر ، لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفيف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع ، تحت ضغط الحاجة والاستقرار في العمل . ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار ، بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى متنوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لا يرجع إلى عيب عضوي ظاهر . مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارئ على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي - عن قصد أو غير قصد - عن مشاغل الأمومة ، ودنيا حواء ، وتشبها بمساواة الرجل ، ومشاركته في ميدان عمله .

« واستند علماء الأحياء في هذا الفرض - نظريا - إلى قانون طبيعي معروف ، وهو أن « الوظيفة تخلق العضو » ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة للأنوثة ، لا بد أن تضمر تدريجيا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه « عالم الرجل » .

« ثم تابع العلماء هذا الفرض ، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظرا ، وإذا بهم يعلنون - في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ - عن قرب ظهور « جنس ثالث » تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

« وثارت اعتراضات . . منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمل ، ويتيح لها بحكم القانون ، فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج

من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال ، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب .

« وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائماً الخوف من أعبائه ، والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل . ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة ، وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج ، فيرد عليه بأن هذا الخروج - على قرب العهد به - قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل ، وإصرار عنيد على التشبه به ، مما عجل بيوارد التغيير ، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها في ضميرها .

« وما يزال المهتمون بهذا الموضوع ، يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ، ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن ، وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة » . . . ( جريدة الأهرام ) .

\*\*\*

من مقال إخبارى فى أخبار اليوم ( من استوكهلم ) لموسى صبرى :

« قال لى أستاذ جامعى سويدي :

« إننا نعلم أبناءنا وبناتنا فى المدارس الثانوية ، وفى سن مبكرة ، كل شىء عن الجنس ، واضحا صريحا . ليست لدينا مشكلة جنس <sup>(١)</sup> . إن المتعة الجنسية كمتعة الطعام

---

(١) سنرى بعد قليل فى المقال نفسه مدى صحة هذه الدعوى !

الذيذ ، ومتعة الملابس الأنيقة ، والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل الزواج هي شيء طبيعي عادي . وما يباح للشباب يجب أن يباح للفتاة !

... « وخلاصة القول أن « حرية الحب » في السويد تعني أن نداء الجنس هو نداء طبيعي ، كنداء البطن ، ونداء العقل .. ليس فيه ما يدعو إلى كبتة ، أو شدة كتمانها .. ولقد تطور بهم مجتمعهم إلى هذه النظرة المجردة إلى الجنس بين الرجل والمرأة - وقد فوجئت وأنا أتروض في حدائق « سكانسن » ذات صباح مشمس ، بوجود بركة مياه لاستحمام الصبية والبنات . ورأيت الأولاد والبنات يستحمون في الماء عرايا ، كما ولدتهم أمهاتهم ، وهم ما بين سن الثامنة والحادية عشرة .. وتبددت المفاجأة تماما ، عندما عرفت أن الكبار أيضا من النساء والرجال ، ينزلون إلى البحر ويمرحون على الشاطئ ، وهم عرايا تماما .. ليس هذا هو أسلوبهم في التصيف ، فهناك من يرتدى المايوه . ولكن نزول « شلة » من الجنسين إلى البحر - وهم عرايا - أمر لا يلفت النظر ، ولا يدير أى رأس !

والسؤال : وماذا تفعل الفتاة إذا أصبحت أما بغير زواج ؟

« والجواب : إذا تخلصت من جنينها كان بها . وإذا لم تتخلص فإن الدولة كفيلة برعاية الطفل وحضائته وتعليمه بالجان ، حتى سن السادسة عشرة .. وهو يقيد في سجل المواليد باسم أمه . أو باسم الأب - إذا اعترف به - والمجتمع لا يعطى الابن غير الشرعى ، أو الأمهات غير المتزوجات إلا كل تقدير واحترام !

« وهنا نتساءل - في جد وخطورة :

« إذا كانت السويد تعتبر كدولة من أرقى دول العالم ، فهل نستطيع أن نتصور ، أننا - وباقي الدول - سننجرف إلى هذا المصير ، إن عاجلا أو آجلا <sup>(١)</sup> ؟

(١) نحن ننجرف فعلا ، وبسرعة مخيفة ، إلى هذا المصير بفضل أجهزة التدمير المطلقة على أخلاق شعوبنا ومقوماتها !

« وتأكيد تقدم السويد - كأرقى دول العالم - أمر تويده الإحصاءات ، وتعترف به كل الأبحاث العلمية .

« إن ما يخص الفرد الواحد في السويد من الدخل القومي يساوي ٥٢١ جنيها مصريا في العام . أي حوالى ٤٣ جنيها في الشهر الواحد .

« ووصل نظام الحكم الاشتراكي في السويد إلى ما يقارب محو الفروق تماما بين الطبقات ، بفرض الضرائب التصاعدية ، وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية ، التي لا تجدها في دول أخرى .

« كل مواطن سويدي يستحق معاشا ، وإعانة مرض ، ومعاش عدم صلاحية ، وإعانة غلاء معيشة وإعانة للسكن ، وإعانة للعمى .

« كل مواطن يستحق نصيبه من التأمين الصحي ، وإعانات المرض التي تصرف نقدا ، والعلاج المجاني في المستشفيات .

« تدفع إعانة أمومة لكل النساء . تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة والرعاية الطبية في المستشفى ، وإعانة إضافية لكل مولود .

« التأمين ضد إصابات العمل إجبارى .

« شروط الإعانات في حالة البطالة هي أسخى شروط معروفة دوليا .

« تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة أقرب إلى الخيال . منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيها في العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة . رعاية صحية مجانية . مصاريف انتقال مجانية للأجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة . مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم .

« التعليم في جميع مراحلہ بالجنان ، مع تقديم إعانات ملابس ، وإعانات معيشية لغير القادرين ، وتقدم للطلبة قروض دراسية تصل إلى ٢٥٠ جنيه للطلبة المجتهدين .  
« تقدم الدولة قروضا لتأثيث منازل العرسان تصل إلى ٣٠٠ جنيه بفائدة بسيطة تسدد على خمس سنوات .

« إن ثلث الضرائب التي يدفعها الشعب السويدي تنفقها الدولة في التأمينات الاجتماعية وتدفع الدولة ٨٠ ٪ منها في مساعدات نقدية . إن أضخم ميزانية هي ميزانية وزارة الشؤون الاجتماعية التي وصلت هذا العام إلى ٣٣٤ مليون جنيه . ثم تليها ميزانية وزارة التربية وقد بلغت ١٣٣ مليون جنيه . بينما تنزل ميزانية القصر الملكي إلى حوالي ٤٠٠ ألف جنيه فقط .  
« مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين أسرة ، فإن الخط البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض .. مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ، ثم تكلل لطفلها الحياة حتى يتخرج في الجامعة .. فإن الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق ..

« يقابل هذا :

« انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين ..  
« وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين ..  
« مع ملاحظة أن ٢٠ ٪ من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدا .  
« لقد بدأ عهد التصنيع ، وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠ . كانت نسبة الأمهات غير المتزوجات في ذلك العام ٧ ٪ وارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٢٠ إلى ١٦ ٪ والإحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة !  
« إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله . إن طلاقا واحدا يحدث

بين كل ست أو سبع زيجات - طبقا للإحصاءات التي أعدها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد - والنسبة بدأت صغيرة ، وهي مستمرة في الزيادة . . في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقا بين كل ١٠٠ ألف من السكان . ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ في عام ١٩٥٢ . ثم ارتفع إلى ١١٤ في عام ١٩٥٤ .

« سبب ذلك أن ٣٠٪ من الزيجات تتم اضطرارا تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحمل الفتاة ، والزواج بحكم « الضرورة » لا يدوم بطبيعة الحال . ويشجع على الطلاق أن القانون في السويد لا يضع أية عقبة أمام الطلاق ، إذا قرر الزوجان أنها يريدان الطلاق فالأمر سهل جدا . وإذا طلب أحدهما الطلاق فإن أى سبب بسيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق .

« وإذا كانت « حرية الحب » مكفولة في السويد . . فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد . . إنها « حرية عدم الإيمان بالله » ! لقد انتشرت في السويد الحركات التحريرية من سلطان الكنيسة على الإطلاق . وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضا . فالمدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ، ويثيرونها في عقول النشء والشباب . . إن الكنائس موجودة في كل مكان ، ولكنها أقرب إلى التحف الأثرية . والدولة تصرف على الكنائس ، وتدفع مرتبات القس . ولكن الكنائس لا تفتح أبوابها إلا صباح الأحد لبضع ساعات ، ولا يؤمها إلا عدد محدود جدا من العجائز - أمثال جدتي وجدتيك - والنكته التي تسمعها منهم : أنهم حددوا ساعات العمل للكنيسة بثلاث ساعات في الأسبوع . وأنها من حقها بعد ذلك أن تأخذ إجازة . . لم يعودوا يؤمنون بأن الدين هو وسيلة إلى إشباع حاجات النوع الإنساني !

« وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا .

إن افتقارهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف ، وإلى الإدمان على المخدرات والخمور .

... « وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالى ١٧٥ ألفا . أى ما يوازي ١٠٪ من مجموع أطفال العائلات كلها .. وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف .. إن من قبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين ، بين سن ١٥، ١٧ ، يوازي ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاما . وعادة الشراب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيء إلى أسوأ .. ويتبع ذلك حقيقة رهيبية .

« إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية ، تلازم أمراضهم الجسدية . ولا شك أن التماذي في التمتع بجمرية عدم الإيمان ، سيضاعف هذه الانحرافات النفسية ، ويزيد من دواعي تفكك الأسرة ، ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ..

« قال لي صحفي نرويجي :

« إن مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان ..

« قلت له :

« وماذا تفعل حكومتكم لدرء هذا الخطر ؟

« أجاب متألما :

« إن حكومتنا أيضا ليست مؤمنة » ... ( أخبار اليوم )

\*\*\*

وبدون أى تعليق أو تعقيب ، نغلق هذا الفصل ، على هذه النذر الرهيبة . فهي

ناطقة بذاتها . إن الذين يخالفون عن قانون الفطرة ، لا يمكن أن يمضوا بلا عقاب .. وهو عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات الأرض ، ورخاء العيش ، ومضاعفة الدخل ، والضمانات المادية الخيالية . فللحياة الإنسانية قوانينها الفطرية الصارمة التي لا تجامل ولا تتخلف ، ولا تلين ...

هذه القوانين هي التي يقول عنها الدكتور ألكسيس كاريل :

« إنهم لم يدركوا أن أجسامهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية ، وهي قوانين أكثر غموضا - وإن كانت تتساوى في الصلابة - مع القوانين الدنيوية. كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم » .  
ولقد حذر الله - سبحانه - عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين .  
وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه ، المتمشي مع سنته في السكون ، فلا تكون لهم من عواقبها نجاة :

« فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . قَطِّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ...  
( الأنعام ٤٤-٤٥ )

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاهم أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا ، كأن لم تغن بالأمس . كذلك تفصل الآيات لقوم يتفكرون » ...  
( يونس : ٢٤ )

وصدق الله العظيم ..

## كيف انخلاص ؟

والآن .. ماذا يا ترى يكون حكمنا على هذه الحضارة الصناعية ؟

ماذا بعد هذه الشهادات الدالة على بشاعة الجريمة ، وعلى الخطر الدائم على « الإنسانية » ؟ على وجودها ذاته بالميل إلى الانقراض في الدول التي بلغت قمة الحضارة ؟ وعلى خصائصها الثمينة بالميل إلى الجنون والأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والإجرام ، وهبوط مستوى الذكاء ، وضعف العقل والاحتمال الجسدى والعصبى والنفسى فى هذه الدول .. إلى آخر قائمة الاتهام الرهيبة ؟

ترى نصدر حكمنا بالإعدام ؟ وهو الحكم الذى يبدو متكافئاً مع ظروف الجريمة ؟ إن الدكتور « كاريل » يقول : إنه كتب كتابه هذا : « الإنسان ذلك المجهول » .. « لأولئك الذين يمدون من أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا - ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية بل أيضا ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشرى » ..

وسنعرف فيما بعد ما هى الفكرة الأخرى التى يقترحها ..

أما نحن فسنبادر بالقول بأن حكم « الإعدام » لهذه الحضارة ، ليس هو أنسب الحلول التى تملكها البشرية ..

إننا أولا لا نملك إصدار حكم بالإعدام على الحضارة الصناعية . فهى نتاج طبيعى ، له مكانه فى تاريخ الحياة البشرية ، ولم يهبط عليها من عالم آخر ، ولا جاء مصادفة ،

ولا نبت سدى .. ومن ثم فهذه الحضارة عميقة الجذور ، أصيلة الوجود ، وجدت لتلبية حاجة طبيعية للبشرية في موعدها التاريخي المناسب كذلك .. ومن ثم لا تكون قابلة للإعدام ، لو اخترنا أن نصدر عليها هذا الحكم ، لفضاعة الجرائم التي ارتكبتها في حق الإنسان !!!

وعلى فرض أننا نملك تنفيذ حكم كهذا .. أو على فرض أن « تتارا » جددا قد انبعثوا في هذه الأرض يحطمون حضارتها - كما حطموا حضارة بغداد - ويلقون بكتب هذه الحضارة في أنهار الرين والراين والسين والتميس والبوتوموك ... أو أن حفنة من مجانين البشر الذين يملكون القنبلة الذرية والقنبلة الأيدروجينية والصواريخ وما إليها ، قد أصابتهم ( النبوة ) ! في لحظة فأطلقوا الدمار على مراکز هذه الحضارة !

على أى فرض من هذه الفروض ، فإن تحطيم هذه الحضارة - على هذا النحو - يبدو لنا - من خلال نظرتنا البشرية المحدودة ، التي لا تعلم حقيقة الخير والشر ، ولا تعرف شيئاً عن مآلات الأفعال - أنه ليس في صالح البشرية .. وفي حدود هذه النظرة لا نملك أن نصدر حكم الإعدام على هذه الحضارة على الرغم من جرائمها البشعة ضد العنصر الإنساني !

إذن .. كيف الخلاص ؟

\*\*\*

الدكتور ألكسيس كاريل يرى أن طريق الخلاص هو :  
« مزيد من علوم الإنسان . يمكننا من إعادة إنشاء الإنسان » .  
« يجب أن يكون « الإنسان » مقياساً لكل شيء ... ولكن الواقع هو عكس

ذلك . فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . . إنه لم يستطع أن ينظم دنياء بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . ومن ثم فإن التقدم الذي أحرزته علوم الجهاد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية . . فالبينة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . . إننا قوم نساء ، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا . . إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة ، الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والمهجنة أسرع من عودة غيرها إليها . . ولكنها لا تدرك ذلك . إذ ليس ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها . . وحقيقة الأمر أن مدينتنا ، مثل المدينيات التي سبقتها ، أوجدت أحوالا معينة للحياة ، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة . . إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجهاد .

« إن العلاج الوحيد الممكن لهذا الشر المستطير هو : معرفة أكثر عمقا بأنفسنا . . فمثل هذه المعرفة ستمكننا من أن نفهم ما هي العمليات الميكانيكية التي تؤثر بها الحياة العصرية على وجداننا وجسمنا . . وهكذا سوف نتعلم كيف نكيف أنفسنا بالنسبة للظروف المحيطة بنا ، وكيف نغيرها ، إذ لم يعد هناك مفر من إحداث ثورة فيها . . ولئن استطاع هذا العلم أن يلقى ضوءا على طبيعتنا الحقة ، وإمكاناتنا ، والطريقة التي تمكننا من تحقيق هذه الإمكانيات ، فإنه سيمدنا بالإيضاح الصحيح لما يطرأ علينا من ضعف فسيولوجي ، كذا لأمراضنا الأدبية والعقلية . . إننا لا نملك وسيلة أخرى لمعرفة القواعد - التي لا تلين - لوجوه نشاطنا العضوي والروحي ، وتمييز ما هو محرم مما هو شرعي ، وإدراك

أنا لسنا أحرارا لنعدل في بيئتنا وفي أنفسنا تبعاً لأهوائنا . . وما دامت الأحوال الطبيعية للحياة قد حطمتها المدنية العصرية ، فقد أصبح علم الإنسان أكثر العلوم ضرورة «  
( ص ٤٣ - ٤٥ ) .

\*\*\*

ونحن نهتف مع الدكتور كاريل : « مزيداً من علوم الإنسان » . . ولكننا لا نرى  
- معه - أن هذا - وحده - يكفي . ولا تثق مثله هذه الثقة المطلقة في ما قد نصل إليه من  
المزيد في علوم الإنسان . ولا نقف - مثله - يائسين من « وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التي  
لا تلين لوجوه نشاطنا العضوى والروحى ، وتميز ما هو محرم ، مما هو شرعى ، وإدراك  
أنا لسنا أحرارا لنعدل في بيئتنا وفي أنفسنا تبعاً لأهوائنا » ..

إن المزيد من علوم الإنسان ضرورى لنا . . لنعرف منه - على الأقل - أقصى  
الإمكانات التى فى طوقنا ، وطوق العلم ، أن نبلغها من المعرفة « بالإنسان » . ونقف على  
حدود المجهول الذى لا حيلة لنا وراءه . فهذه المعرفة ضرورية لنحدد - على ضوءها - ما الذى  
نملك وما الذى لا نملك من التصرف فى شأن « الإنسان » لعلنا نلتزم حدودنا  
ولا نتعدها ، ولا نخبط وراءها فى التيه بلا دليل ، كما فعلنا حتى اليوم ، بلا مبالاة .

والدكتور كاريل كان قد سبق فقرر لنا أن هناك أسباباً لتخلف علوم الحياة عن علوم  
الجماد - ليست طارئة ولا وقتية - إنما هى ثابتة وطبيعية . . أسباباً ترجع إلى تعقد الحياة  
من جهة ، وإلى طبيعة عقلنا من جهة أخرى . ومن ثم قرر لنا أن علوم الحياة لن تبلغ  
- فى يوم من الأيام - ما بلغت علوم الجماد من الدقة والجمال .. وبالضبط قال لنا بألفاظه :

« إن معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ،

والجمال التي بلغها علم المادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفى العناصر التي أخرجت تقدم علم الإنسان » ... ( ص ٢٣ )

فمن العجيب - بعد ذلك - أن يجعل اعتماده كله ، في حل مشكلة الحضارة ، وإعادة إنشاء الإنسان ، على « مزيد من علوم الإنسان » .

ولكننا لكي نزيل هذا العجب ، يجب أن نواجه مشكلة دكتور كاريل نفسه . فإن مواجهتها تفيدنا في تعيين الجهة التي يمكن أن يأتي منها الخلاص الحقيقي ، والاتجاه الواحد الميسور للخلاص ..

إن هذا الرجل الواسع المعرفة ، العميق الحساسية ، الشديد الإخلاص ، المتحرر الفكر ، النائر على الحضارة الصناعية ، حتى يرى أن ليس هناك ما هو أقل من « قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري » ..

إن هذا الرجل - على كل هذه الفضائل والخصائص فيه - رجل « غربي » نشأ في البيئة الغربية ، بكل ملابس تاريخها القديم وحاضرها الراهن . كما أنه نشأ في ظل هذه الحضارة ، وفي بيئة « العلم » الذي هو طابعها الظاهر ..

وبسبب كل هذه الملابس فهو .. سجين هذه الحضارة .. سجين بيئتها وتاريخها وملابس حياتها .. سجين الانطباعات والرواسب العميقة العنيفة في هذه البيئة ..

ومن ثم لا يملك - حين يثب الوثبة الكبرى - أن يخرج من إطارها ..

ونزيد هذه الحقيقة العجيبة إيضاحاً :

إن الدكتور كاريل يتنفس في بيئة آمنت بالعلم التجريبي إيماناً مطلقاً فترة قرنين من

الزمان .. وعلى الرغم من أنها بدأت في هذا القرن الأخير تفتيق من نشوة انتصار العلم ،وهي تراه يقف على عتبات المجهول عند آفاق كثيرة . فإن رواسب القرنين الماضيين لا تزال عميقة وعنيفة .. حتى عند الذين عرفوا « حدود العلم » ..

وهو في الوقت ذاته يتنفس في بيئة عرفت الدين - في أحسن صورته - تصوفاً روحياً مرفرفاً شفيفاً ، واتصالاً بالغييب من غير وساطة مادية ظاهرة ، وصلاة ودعاء يغييب فيها الفرد عن ذاته ، ويندمج في الملاء الأعلى .

وهذه هي الصورة الوضيئة المشرقة الحبيبة إلى نفس الدكتور العالم الشاعر المتصوف المرفرف ، كما يصفها في كتابه هذا ، وكتابته الآخر الذي عنوانه « الصلاة » .. وكما يكرر ضرورة توفير الجو المناسب لانطلاقها في حياة البشر . . وكما يثور على الحضارة المادية الصناعية ، لأنها تخنقها ، وتخنق معها كل شعور بالجمال ، وكل نشاط فني أو روحى أودينى ..

ومن هاتين النقطتين : نقطة الإيمان بالعلم ، ونقطة تصور الدين على هذا النحو وفي هذه الحدود .. تنشأ مشكلة الدكتور كاريل ، وأمثاله ممن تهولهم فظاعة التدمير الذى تنشئه هذه الحضارة في حياة الإنسان « وروحه » ، وتهتف بهم أشواقهم الروحية إلى استشراف حياة فيها للعقيدة الروحية مكان ..

تنشأ المشكلة من ثورته على هذه الحضارة ومن « سجنه » في إطار هذه الحضارة في الوقت ذاته .

ومن هنا لا يرى أن هناك وسيلة أخرى لوقف هذا التدمير الذى تنشئه هذه الحضارة في الكيان الإنسانى ..

إنه لا يملك منهجاً للحياة إلا الذى يقرره العلم .. لأن الدين - كما هو في بيئته - في

أحسن صوره ، لافى الصورة الكريهة المنفرة الأخرى - هو مجرد نشاط روحى ، وتهذيب خلقى ، واتصال بالعوالم الغيبية ..

وهو فى صورته هذه يمثل جانبا واحدا من جوانب التكوين الإنسانى . فالإقتصار عليه شديد الخطورة ، لأنه معوق للنشاط الواقعى العملى الإيجابى - المادى - وهو يحذر أشد التحذير من أن يكون الهروب من الحضارة إلى مثل هذا العالم الذى لا يحوى إلا النشاط الروحى .. وهو محق تماما فى تحذيره هذا . إذ كان لا ينشئ إلا نكسة إلى « الرهبة » التى ذاقها منها أوربا ماذاقت فى تاريخها ، والتى انتهت - كما أسلفنا - إلى الجموح المادى الكافر الغليظ الجافى .

فأما لو فكر فى أن يكون للحياة منهج دينى واقعى .. فإن صورة كريهة مفرغة تخايل له . لأنها الصورة التى عرفتها كذلك أوربا .. صورة الكنيسة الطاغية التى تفرض تصوراتها الخرافية على العلم والعلماء وعلى الحياة والأحياء .. وهى صورة كذلك أسوأ وأدهى ..

لا مفر إذن - لأمثال هؤلاء المخلصين المساكين - إلا أن يلجأوا إلى « العلم » وإلى العلم وحده . حتى فيما يحسون هم أنفسهم أن العلم لن يصل بهم فيه إلى نتائج حاسمة قاطعة كالتى وصل إليها فى عالم المادة ..

ولكن ماذا بيدهم ؟ ماذا يملكون للبشرية غير هذا ؟

\*\*\*

ولكننا نحن نملك ...

نحن - أصحاب المنهج الإسلامى للحياة - نملك للبشرية مالا يملكه أحد آخر على

ظهر هذا الكوكب .. ونملك أن نقذف دكتور كاريل نفسه من حيرته هذه ؛ وأن نستجيب  
لصراخه المخلص العميق الحاد !!!

ونحن - أصحاب المنهج الإسلامي للحياة - ندرك من دراستنا لموقف الدكتور كاريل  
الذي يستحق العطف والرثاء أننا - وحدنا - مكلفون أن نتقدم لحل العبد ، ولندل  
البشرية على طريق الخلاص ، ولننشىء هذا الطريق أيضا ..

نحن نملك منهجا للحياة ، لا يعادي العلم مطلقا ؛ ويرحب بمزيد من علوم الإنسان  
على وجه الخصوص .. ولكنه في الوقت ذاته لا يكل لهذا العلم - وحده - بناء الحياة  
الإنسانية ، إنما يضع الإطار العام الذي يعمل فيه العلم ، ويعمل فيه العقل ، في دائرة  
مأمونة ..

هذا الإطار من صنع الذي « يعلم » حق « العلم » حقيقة هذا الإنسان ، وفطرته ،  
وطاقاته ، وحاجاته الحقيقية . فلا تخفى عليه من الإنسان خافية ! ولا يضع أمام عشرات  
المسائل ومئاتها في حياة الإنسان وتركيبه علامة استفهام واحدة ؟!

وهو إطار واسع جدا ، شامل للإنسان كله . تدور الحياة البشرية في داخله على محور  
ثابت . فتتحرك دائما حول هذا المحور ، وداخل هذا الإطار ، حركة نامية متجددة ، وهي  
في الوقت ذاته آمنة سالمة .

ومنهجنا هذا لا يجعل الدين مجرد ذلك النشاط الروحي الذي لا يعرف دكتور كاريل  
صورة غيره للدين .. إنما هو يجعل الدين بوتقة الحياة كلها .. تصهر فيه ، ثم تشكل في جميع  
صورها وألوانها ، كما يجعله هو الإطار الذي تزاوُل الحياة كل نشاطها في داخله . وهو المحور  
الذي تشد الحياة كلها إليه . والعقل والعلم والصناعة والاقتصاد والسياسة والصلاة والدعاء

والاتصال بالملأ الأعلى ظواهر لهذا النشاط حول هذا المحور وداخل هذا الإطار .. إن منهجنا يفهم « الدين » على أنه هو منهج الحياة الإنسانية بكل مقوماتها .. المنهج الذي وضعه الله ، وارتضى أن تسير وفقه الحياة .

ومن ثم نجد طريقا للخلاص . يحتوى - فى بعض مراحلها - طريق الدكتور كاريل ، بلا تعارض ولا تخاصم ولا شقاق .

\*\*\*

إن منهجنا يبدأ من نقطة سابقة جدا على النقطة التى يبدأ منها دكتور كاريل ، والكثيرون غيره من المخلصين الغربيين ، الذين لا ينقصهم الإخلاص ، ولا تنقصهم الخبرة ، ولا تنقصهم الرغبة فى تدارك البشرية من الهاوية التى تنحدر إليها . ولكنهم مع هذا « سجناء » يبتتهم وحضارتهم .. أبعد خطائم وثبة فى داخل القفص .. لا تتعداه إلى منهج مبتكر من أصوله . لأنهم لا صلة لهم بهذا المنهج من الناحية التاريخية ولا من الناحية الشعورية - على فرض معرفتهم به من الناحية العلمية - إذ المول فى مثل هذه المواقف الفاصلة على رواسب التاريخ وكوامن الشعور ..

منهجنا يبدأ من نقطة تصحيح مركز الإنسان فى هذا الوجود . وتعيين مكانه ودوره ، ووظيفته وحقوقه وواجباته ..

إنه ليس إلهاً ينافزع « الآلهة » ! وتنازعه . وليس كذلك حيوانا جاءت سيادته على الأرض مصادفة ، وقد يقوم مقامه فى هذه السيادة غداً قط أو فأر ! وليس آلة تحسب قيمته بقوة « الأحصنة » التى يساويها فى قوة التحريك والإدارة . وليس عبداً للمادة ، ولا هو لوحة تطبع فيها المادة (أو الطبيعة) ما تريد . وليس عبداً للآلة ، تصرف حياته

وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هي وتتقلب . وليس « نمر » ولا مجموعة « نمر » تتحرك داخل القطيع ، بلا شخصية مميزة ، ولا كيان « فردى خاص » .

وليست المرأة أجبولة للشيطان ، وليس اتصال الجنسین رجسا من عمل الشيطان . وليست اللذة والمتعة هي غاية هذا الاتصال ، ولا الهوى دافعه وممانعه على السواء . وليس الجنسان سواء في وظيفتهما وعملهما ؛ وليس مجرد التفرقة بينهما في التكوين البيولوجي عبثاً لا معنى له ولا هدف وراءه . . إلى آخر ما مرت به النظرة إلى « الإنسان » من تخبیط واضطراب ..

كلا .. إنما الإنسان .. إنسان .. « إنسان » وليس إلهاً - هو سيد هذه الأرض وهو عبد لله في آن .. وهو مسلط على هذه الأرض ، ومستخر له كل ما فيها ، وعليه أن يخلف الله - سبحانه - فيها ، ويغير فيها ويبدل ، وينمي فيها ويرقي ، وهو معانٍ على استغلال كنوزها وطاقاتها . معانٍ بما وهبه الله من قوى وطاقات ، ومعانٍ بما في نوااميس هذا الكون من عون للإنسان في هذا المجال .. وفي الوقت ذاته هو من نفسه في حرم مقدس . حرم من حرمة الله . لا يمسّه إلا بإذن الله ، ولا يعمل فيه إلا بمنهج الله . ولم يوهب معرفة أسرار هذا الحرم - إلا بقدر - ولم يسمح له أن يضع له من تلقاء نفسه المناهج والخطط والشرائع والأوضاع . ولم يؤذن له أن يتخذ إلهه هواه ..

وهو « إنسان » - وليس حيواناً - هو مخلوق فذ في هذا الكون . مخلوق قصداً ، وخلقته حكمة . ومزود بطبيعة خاصة - فوق طبائع الحيوان - وبخصائص معينة - فوق خصائص الحيوان - لأداء وظيفة معينة في الأرض لا يؤديها الحيوان . وله - من ثم - مقام كريم ، يعادل وظيفته الكريمة .. كان كذلك يوم نشأ ، وهو كذلك اليوم ، وسيكون كذلك غداً .. والذين خالفوا عن هذه الحقيقة يعودون إليها مرغمين الآن ..

وهو « إنسان » - وليس آلة ، ولا عبدا للآلة ، ولا من صنع المادة ، ولا من صنع الآلات - وهو كائن معقد شديد التعقيد ، ليست له بساطة المادة ولا طواعية الآلة . والذي نعلمه عن تعقيده قليل - ونحن في أول الطريق من علوم الإنسان ، ولم نصل بعد إلى المزيد من علوم الإنسان الذي يتطلبه دكتور كاريل - ومع ذلك فقد واجهتنا « الحياة » بتعقيدها الخفيف الذي لم تواجهنا به المادة ، وواجهنا « الإنسان » بتعقيد أشد هولا ..

فمن الجرأة المتهورة المتهجمة على « العلم » وقواعده ، الزعم بأن هذا الإنسان مادة ، والتعامل معه كالتعامل مع المادة .. ومن التخبط أن نزع أنه كآلة ونعامله كما نعامل الآلة .. ثم من التوقح البغيض أن نقول : إن الآلة ( أداة الإنتاج ) هي الإله الذي يغير فيه ويبدل كما يشاء !!!

وهو « إنسان » - وليس « نمر » من النمر ولا فردا من القطيع - هو إنسان يتميز أفراده بعضهم من بعض ، ويتمتع كل فرد بذاتية مستقلة لا نظير لها ، ووحداية حقيقية - رغم اشتراكهم جميعا في خصائص إنسانية عامة - ولكل فرد منهم « خصائصه الذاتية » إلى جانب « الخصائص الإنسانية » . . ومن ثم ينبغي أن يكون النظام الاجتماعي ، والنظام الاقتصادي ، والنظام السياسي . والطريقة الفنية للعمل في المصانع وغيرها ( التكنولوجيا ) مبنية على أساس ملاحظة « الخصائص الإنسانية » العامة أولا . و « الخصائص الفردية الذاتية » ثانيا . فلا يحشر الجميع في نظام للعمل كالتقطيع . ولا يكون عمل الفرد في المصنع أوفى أى مكان ، بديلا عن عمل الآلة ، المتألة الغرز والطرق .

وحين تحترم خصائص الإنسان العامة ، وخصائص الأفراد الذاتية ، فلن يتعذر على المهندسين والمديرين إيجاد طرائق العمل الفنية التي تحافظ على هذه الخصائص وتلك ، ولن يتعذر على « التكنولوجيا » أن تضمن الإنتاج الكبير وتضمن في الوقت ذاته المحافظة

على هذه الخصائص وتلك ، فلا تسحق « الإنسان » ولا تسحق « الفرد » في عمل أو نظام .

وهو « إنسان » من ذكر وأُنثى . . من نفس واحدة ، نعم . . ولكنهما جنسان . ومنهجنا يعرف هذه الحقيقة بشطريها ، ويكفل لشطري النفس الواحدة حقوقا واحدة - فيما يتعلق بالأصل الإنساني العام - ولكنه في الوقت ذاته يفرض على كل منهما واجبات مختلفة ، وفق الوظيفة الخاصة في العمران ، ووفق طاقة كل منهما ومجموعة تكاليفه ، فلا يكلف المرأة المسكينة مثلاً أن تحمل وترضع وتربي ، وفي الوقت ذاته تعمل وتكدح وتشقى . . بينما الرجل لا يشاركها الحمل والرضاع والتربية . ثم يزعم بعد ذلك أنه ينصف المرأة ويحترمها ويرقيها ! ولا يكلف المرأة أن تهبل بصناعة « الإنسان » لتشتغل بصناعة « الأشياء » . فالإنسان في منهجنا أغلى من الأشياء . ولا يجوز فيه أن تشتغل المرأة المثقفة الماهرة الحكيمة بصناعة الأشياء وإنتاجها ؛ وأن تستجلب لأبنائها امرأة أخرى أقل ثقافة ومهارة وحكمة ، وأرخص أجرا بالطبع ، لتشرف لها على « الأبناء » بينما هي تشرف على « الأشياء » !

وهكذا - وفي ظل هذا المنهج ، ومن نقطته السابقة في البدء - يصبح المزيد من علوم الإنسان ذا قيمة في موضعه المناسب ، في مرحلة من مراحل الطريق . لا من بدء الطريق .

\*\*\*

ومنهجنا لا يجد نفسه - بعد ذلك - في مشكلة أمام الصناعة والحضارة الصناعية . . إن هذا المنهج لا يرفض الحضارة الصناعية ولا يحفل منها ، ولا يتنكر لها . . إنها

- ابتداء - وليدة اتجاهه المبكر إلى « العلم التجريبي » ، هذا الاتجاه الذى انتقل إلى أوروبا عن طريق جامعات الأندلس وعلم المشرق - كما يقرر بريفولت ودوهرنج وجب وغيرهم ممن لا يملكون إنكار الحقائق التاريخية - وهذا الاتجاه هو أصلا وليد نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان ، ودور الإنسان فى هذه الأرض . ووليد طبيعة المنهج الإسلامى فى النظر إلى واقعيات « الكون » ، وتدبرها والانتفاع بها . وهو اتجاه مخالف تماما لاتجاه الفلسفة الإغريقية التجريدية ، التى ورثتها العقلية الأوروبية ؛ ومخالف كذلك للتصورات الكنسية ، التى كانت تجعل علوم الكون المادى « تصورات مقدسة ثابتة » بينما الإسلام يطلق العقل البشرى - فى هذا المجال - ليجت ، ويجمع الشواهد ، ويتبع الظواهر ، وينشئ القوانين ، ويتحرى وسائل استخدامها وتسخيرها فى عالم الواقع . ويخطئ ويصيب بلا تجريم ولا تأثيم .

وإذن فإن هذا المنهج لن يرفض الحضارة الصناعية ، لأنها وليدة طرائقه المنهجية ، التى انتقلت إلى أوروبا ، فرفضتها الكنيسة وشنت عليها حربا شعواء قاسية ، انتهت بهزيمة الكنيسة ، وانتهت - مع الأسف - بهزيمة الدين كله لارتباطه فى أوروبا بالكنيسة . .

إن القاعدة التى يقوم عليها بناء الحضارة الحديثة - من الناحية العلمية - ليست غريبة علينا . بل هى ابتداء من عندنا - كما رأينا - ومنهجنا ينظر إلى نتائج الحضارة - من الناحية العلمية - نظرتة إلى أمانة ردت إليه ، وسامم هو فى نشأتها مساهمة أساسية قبل خمسمئة عام . وبينه وبينها صلح قديم من حيث إن طبيعة المنهج الإسلامى التى تنفر من الفلسفة النظرية المجردة - على طريقة الإغريق - وتتجه إلى « المثالية الواقعية » أو « الواقعية المثالية » كانت هى الحافز الأول لهذا الاتجاه العلمى التجريبي الذى لم تكن جذوره فى أوروبا .

لا من الحضارة الإغريقية ولا من الحضارة الرومانية ، ولا من التصورات الكنسية

هذه التصورات التي لم تكن سوى خليط من النصرانية السمحاء التي جاء بها عيسى - عليه السلام - والوثنية المخرفة التي أدخلها فيها قسطنطين وكبار رجال الدولة الرومانية حين دخلوا في النصرانية ، وزاد طيبتها بلة التصورات الكنسية عن الآراء العلمية الخاطئة التي كانت رائجة في زمانها ، وتبنتها الكنيسة ، واعتبرتها آراء مقدسة عن الكون المادى والحياة .

إنما الذى يرفضه منهجنا ويشدد في رفضه ، من هذه الحضارة ، هو شيء آخر غير الأساس العلمى التجريبي الذى تقوم عليه . .

إنه سيرفض المذهب المادى ( الوضعى أو الحسى ) الذى يجعل المادة هى الوجود - ولا شيء غير المادة - وقد تحطمت هذه النظرية « علميا » أو تكاد والحمد لله . والذى يجعل « الإنسان » تابعا للمادة يتلقى منها فقط ، ويتكون من انطباعاتها - وحدها - عقله وتفكيره وتصوراته ، كما يتكون جسمه سواء ، مع اعتباره سلبيا تجاه المادة سلبية مطلقة ( كومت وزملاؤه ) . . والذى يجعل تطورات التاريخ في معزل عن إيجابية الإنسان ، ويردها فقط إلى أدوات الإنتاج ( كارل ماركس وزملاؤه ) .

كما سيرفض كذلك النظرة الحيوانية للإنسان التي أطلقها « دارون » والنظرة القذرة إلى دوافع الإنسان ، وحصرها في وحل الجنس كما يزعم « فرويد » وهو يدرس « الشواذ » ويجعلهم هم « الإنسان » . . .

كذلك سيرفض منهجنا ما ترتب على هذه النظرات كلها من إقامة الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وإقامة نظام العمل وطرائق الإنتاج الفنية على أساس إهدار آدمية الإنسان ، وخصائصه الإنسانية العامة أولا ، وخصائصه الذاتية الفردية ثانيا ، وخصائص جنسية التمييزين ثالثا ؛ واعتباره ترسا في الآلة ، أو بهيمة في القطيع . والاهتمام

فقط بمضاعفة الإنتاج ، وبتوفير وسائل إشباع الضرورات الجسدية - فحسب - مع إهدار أشواق الإنسان وحاجاته الأخرى في نظام الحضارة ( كما يقرر الدكتور كاريل ) من حبه للجمال والفن ونشاطه الأدبي والديني . . ( غير أن تصور منهجنا للنشاط الديني لن يكون في تلك الحدود الضيقة التي لا يعرف الدكتور كاريل سواها . بل سيكون معناه - كما قلنا - أن يكون الدين هو منهج الحياة الكلى ، الذى تتحرك في إطاره ، وتنمو بكل أنواع النشاط الإنسانى . ومنه العمل والإنتاج والسياسة والاقتصاد ، والخلق والسلوك . والصلاة والدعاء ، والاتصال بالملا الأعلى والاتصال بالآلة والإنتاج سواء ) .

وسيستدعى هذا تعديلا في طرق الإنتاج الفنية « بحيث توائم بين الرغبة في مضاعفة الإنتاج والإبقاء على خصائص « الإنسان » العامة ، وخصائص الفرد الذاتية . وتعديل أوضاع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بحيث توائم كذلك بين استقرار الحياة وتوازنها ، والإبقاء على الخصائص « الإنسانية » و « الفردية » مع الإبقاء - كذلك - على خصائص « الجنسين » من ذكر وأثنى . .

\*\*\*

ومنهجنا لن يجد نفسه في مشكلة أمام الاستمتاع بالتيسيرات الحضارية التى تتيحها الحضارة المادية وفنونها المتجددة للإنسان ؛ ولأمام الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، وكنوز الأرض ونتائجها مما تتيحه الحضارة المادية ؛ ولن يحدث نكسة إلى رهبانية روحانية كالتي ابتدعتها الكنيسة في أوروبا ، لمقاومة سيل المتاع على الطريقة الرومانية ، أو - بتعبير أصح - للهرب من مواجهة الحياة الدنيا .

فمنهجنا لا يفكر الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، ولا يجمّد الإبداع المادى في الأرض ، ومن ثم لا يجمّد وسائل المتاع بهذا الإبداع . . بل أكثر من هذا ، هو يعد

ذلك جزءا من وظيفة الإنسان في هذه الأرض . فالخلافة معناها القيام على شؤون هذه الأرض ، واستثمار خيراتها ، واكتشاف كنوزها ، والاستمتاع بطبيعتها ، في حدود منهج الله ، مع التوجه لله بالعبادة والشكر والاعتراف على ما سخره للإنسان من طاقات في نفسه ومن مدخرات في هذه الأرض . وكثيرا ما من الله على عباده بما أنعم عليهم من الموارد والتيسيرات التي كانت متاحة لهم حينذاك ، وبشرهم بغيرها مما سيأتي . كما عقب على ذكر نعمة الأنعام ، وما تيسره للإنسان من متاع وراحة ومنفعة وجمال ، فقال بعد ذلك كله « ويخلق ما لا تعلمون » فما من شيء طيب تنتجه الحضارة المادية ، إلا ومنهجنا يعتبر حقا للإنسان أن يستمتع به في حلال ..

ولكن هذا المنهج يرفض أن يستمتع الإنسان بخيرات الأرض وتناج الحضارة كما يستمتع الحيوان . يرفض أن يكون الإنسان عبدا للذائذه ، مقهورا عليها قهرا لا يملك معه إرادته ، ولا يملك أن يقف عند الحد الذي يؤمن معه المتسع ، فلا يؤدي الإفراط إلى الانحلال والدمار .. والبوار .. يرفض أن يكون المتاع في ذاته غاية غايات الإنسان . فالإنسان أكرم من هذا وأرفع ، وغاية وجوده الإنساني أكبر من هذا وأضخم . وهو لا يكون « إنسانا » إلا بأن يدرك غاية وجوده ، وأن يسيطر على شهواته ولذائذه وأن يقف عند الحد المأمون منها .. بإرادته ..

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »

... (محمد : ١٢)

إن المحافظة على « إنسانية الإنسان » هدف أساسي في هذا المنهج . فهو لا يملك أن يؤدي وظيفته الفذة في الأرض ، إلا بتكوينه هذا الفذ . فأى عامل يؤدي إلى تغيير طبيعته ، أو إتلاف خصائصه ، هو عامل مرفوض من المنهج الإسلامي .

وهكذا نملك - عن طريق هذا المنهج - « وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التي لا تلين لوجوه نشاطنا العضوى والروحى ، وتميز ما هو محرم مما هو شرعى ، وإدراك أننا لسنا أحرارا لنعدل فى يئثنا وفى أنفسنا تبعاً لأهوائنا » . . فهذا المنهج يبين لنا هذا كله . . ولا ينتظر بنا حتى تصل « علوم الإنسان » إلى الحد الذى تجزم فيه برأى فى هذه القضية الخطيرة ، التى يتوقف عليها بقاء « إنسانية الإنسان » ، وبقاء الحضارة فى المستوى الإنسانى . فكل الضروريات الأساسية التى من هذا النوع ، رحمتها الله من توقفها على علمنا - أوحى على إرادتنا - وجعلها أحياناً تتم بدون إرادة منا ، كضم الطعام وامتصاصه ، لبقاء الحياة . . وكذلك هنا لم يدعنا تتخبط فى جهالتنا لتمييز « ما هو محرم مما هو شرعى » بل بين ذلك فى منهجه لحياتنا بياناً شافياً . وأباح لنا الطيبات كلها ، ولم يحرم علينا إلا أشياء قليلة - يعلم هو أنها تؤذينا ، سواء علمنا نحن أم لم نعلم - ورسم لنا الحدود التى نحتفظ فيها بإنسانيتنا وخصائصها ، مع المتاع بطيبات الحياة وتيسيرات الحضارة فى كل زمان ...

\*\*\*

ومنهجنا لن يجد نفسه فى مشكلة أمام مؤسسات الحضارة الاقتصادية التى يقوم بناء الحضارة الصناعية عليها لشتى مرافق الحياة . . ( وإن كنت لا أحب أن أدخل فى تفاصيل فقهية فى هذا الموضوع . . للأسباب التى سأبديها فى الفصل التالى ) .

ولكنه سيرفض حتماً الأساس الربوى الذى يقوم عليه معظم هذه المؤسسات . سيطهرها من هذا الرجس ، ويخرج منها دود العلق ، الذى يمتص دماء الملايين . ولن يسمح بنظام يجعل حصيلة كد البشرية فى جميع أنحاء الأرض : من عمال وصناع وتجار ومديرى مصانع وأصحاب أرض وعمائر وصناعات . . كله . . يرجع إلى بضعة آلاف من مؤسسى البيوت المالية وبنوك الإقراض فى العالم ، فهؤلاء هم الذين تكبد البشرية كلها لتؤدى لهم « فوائد »

أموالهم المتداولة في أنحاء العالم . وهؤلاء هم الذين يوجهون الاستثمار - مباشرة أم غير مباشرة - إلى المشروعات الأكثر ربحاً - للوفاء بفوائد الأموال - وهي التي تحطم خصائص البشرية وأخلاقيها ومقوماتها في الغالب . وهؤلاء هم الذين يسببون الأزمات الدورية المعروفة في النظام الرأسمالي . وهؤلاء هم الذين تنشأ عن خططهم الجهنمية اللعينة أزمات التعطل ، والفساد الخلقى الذى يتبعه . كما تنشأ الخطط الاستعمارية - في صورها المختلفة ، وآخرها « استثمار » بعد ما فشل « استثمار الاحتلال » - وعشرات من النكبات العالمية الأخرى . .

ومن ثم تختفى هذه الولايات التى تعاني منها البشرية كلها ، أو تخف حدتها على الأقل . . حين يختفى النظام الربوى . .

أما المؤسسات الاقتصادية ، فلا ذنب لها في ذاتها ، ولا ضرر منها إذا اختفى هذا العنصر الخبيث ( وذلك مع الاحتفاظ بوجهة نظرى في عدم وضع أحكام فقهية مفصلة الآن ) . . على أن طرق الإنتاج الحالية ، المؤسسة على قاعدة إنتاج أكبر قدر بأقل أجر . . والتى ينشأ عنها تحطيم خصائص الإنسان في المعامل والمصانع - كما يقول دكتور كاريل - يرجع قسط كبير من سوائها للنظام الربوى . من ناحية أن الأموال المستخدمة في الاستثمار معظمها قروض ربوية . فهناك حرص شديد - فوق الحرص الذى تنشئه أثره الرأسمالية وحى المادية - على الربح ، الذى ينفى بفوائد القروض المستثمرة ، وتفضل منه فضلة . ولو كان هذا على حساب إنسانية العامل ، وخصائص الإنسان . .

وتعديل طرائق الإنتاج ليس شيئاً مستحيلاً . فالفكر الإنسانى الذى أنشأ هذه الطرائق في ظل أنظمة رأسمالية ربوية - أو مادية مذلة للإنسان بصفة عامة - يملك أن ينشئ طرائق أخرى ، تجمع بين الغايتين كما أسلفنا . . متى رفع عنه كابوس التصورات المذلة للإنسان ، وسيط الفوائد الربوية التى تسوق الاستثمار والإنتاج في كل مكان .

\*\*\*

إن منهجنا هو الذى يقيم الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والتعليمية والتعلّيمية والتربوية المتكاملة ، التى تعيد « إنشاء الإنسان فى تمام شخصيته . الإنسان الذى أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة » . كما يريد دكتور كاريل من « علوم الإنسان » أن تفعل !

فإعادة إنشاء الإنسان لا يقدر عليها الإنسان .. إن الذى خلق الإنسان هو الذى يملك أن يعيده ، والذى أنشأه فى أحسن تقويم هو الذى يملك أن يرده إلى تقويمه ، بعد أن يكون قد هبط إلى أسفل سافلين :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » ( التين : ٤ - ٦ )

إن الذى يحاوله دكتور كاريل والعلماء المؤمنون من أمثاله ، أو الغيورون على « الإنسان » - بصفة عامة - أكبر من طاقة الإنسان . إنهم يطلبون عمل إله وقدرة إله ، وعلم إله ، وهيئات أن ينهض البشر بما هو من خصائص الله ..

إن الإنسانية تتردى فى الهاوية .. هذا صحيح .. وتنتحر بيدها .. هذا صحيح .. وتحتمق بالظروف العدائية التى أنشأها العلم حولها « الظروف التى تجعل الحياة ذاتها مستحيلة » .. هذا صحيح ..

إن خصائص الإنسان التى بها صار إنسانا ، والتى بدونها لا يملك المضى فى خلافة الأرض ، والسيادة على عناصرها .. تدمر تدميرا بشعا ، والإنسانية لا تدري ، ولا تستمع لأصوات العقلاء الذين ينفذونها بالخطر . وإن استمعت فلا تملك أن تتوقف عن المضى إلى الهاوية .. وهناك منهج واحد .. واحد لا يتعدد .. هو الذى يملك أن يمد إليها يده بالإفقاذ .. وهناك طريق واحد .. واحد لا يتعدد .. هو طريق الخلاص ..

ولكن كيف يُقدّم هذا المنهج للبشرية ؟ وكيف يُشرّع هذا الطريق ؟ ؟ ؟  
ذلك فصل الختام فى هذا الكتاب ...

## طريق الخـلاص

إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع . . إنما تستجيب لمنهج حي متحرك ، مجسم ، ممثل في حياة جماعة من البشر ، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد ، وتلاحظ آثاره العقول . .

إنها تستجيب للمنهج الإسلامي في صورة . . مجتمع إسلامي . .  
وعلى كل ما لقيته البشرية من اللأواء والنصب في هاجرة التيه المقفر الذي سارت فيه بلا دليل . .

وعلى كل ما عاتته من التجارب القاسية ، والتخبط المؤلم ، وهي تنهض وتعثر ، وتنزف جروحها طوال الطريق . . !

وعلى كل ما يهدد خصائصها من الدمار ، ويهدد حياتها من البوار ، في ظل هذه الحضارة المادية التي أقيمت دون علم بالإنسان ، ودون مراعاة لخصائصه في كل زمان !  
وعلى كل ما يدرك العقلاء فيها من جسامنة الخطر الذي يتعرض له وجودها ذاته ، وتعرض له خصائصها الثمينة . .

على الرغم من هذا كله ، فإنه ليس من عادة البشرية أن تستجيب لمنهج مقروء أو مسموع . . مالم يتمثل في صورة « مجتمع » يعيش بهذا المنهج ، ويعيش له ، وتمثل فيه خصائصه ومزاياه . .

وَأَلْف كتاب عن الإسلام . وألف خطبة في مسجد أو قاعة أو ميدان . وألف فيلم في الدعاية للإسلام . وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر في كل مكان .. كل أولئك لا يغني غناء مجتمع صغير يقوم في ركن من أركان الأرض ، يعيش بمنهج الإسلام ، ويعيش لمنهج الإسلام ، وتمثل فيه خصائص هذا المنهج ، وتمثل فيه صورة الحياة في الإسلام !

وأعداء الإسلام العالميون من الصهيونيين والصليبيين المستعمرين يعرفون هذه الحقيقة جيدا . ومن أجل معرفتهم العميقة بهذه الحقيقة ، هم قد يسمحون بنشر الكتب عن الإسلام - في حدود - وإلقاء الخطب عن الإسلام - في حدود - وبعرض الأفلام عن الإسلام - في ندرة ! - وإرسال البعثات للإسلام - في رقابة ! - ولكنهم لا يسمحون أبدا - بما لديهم من سلطات عالمية ضخمة خافية وظاهرة - بقيام مجتمع إسلامي - ولو صغير - في ركن من أركان الأرض - ولو في جزيرة بالمحيط !

ذلك أنهم يعرفون أن هذه هي الوسيلة الجديّة الوحيدة « لوجود » الإسلام ! وهم قد عانوا من « وجود » الإسلام طويلا . إذ حال بينهم وبين أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية للوطن الإسلامي والمجتمع الإسلامي .. وما صدّقوا أن أجهزوا - كما يتصورون - على هذا الجبار . فهم يفرعون من شبحه ولا يريدون له « الوجود » الفعلي بحال من الأحوال ..

\*\*\*

ولكن المجتمع الإسلامي - مع هذا كله - هو طريق الخلاص الوحيد للبشرية المهددة بالدمار والبوار ..

إنه الاستجابة الوحيدة لنداء الفطرة في ساعة العسرة . والفطرة في ساعة الخطر تنبئه وتعمل ، مهما تكن في خمار أو دوار !

إنه ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية .. ومن ثم فإن الدوافع لبروزه أقوى من كل قوة معوّقة . أقوى من الصهيونية الماكرة والصليبية المستعمرة . وأقوى من الأجهزة المسلطة في كل زاوية من زوايا الأرض .. وأقوى كذلك من جهل أهل الإسلام بالإسلام ؛ وبلادتهم وانتمارهم في التيار الجارف العام !

إنه لا مفر من قيام هذا المجتمع .. المجتمع الإسلامي ..

إنه إن لم يتم اليوم فسيقوم غدا . وإن لم يتم هنا فسيقوم هناك . . ولا نريد أن نتنبأ  
عن مكان أو زمان، فنحن - البشر - نقف تقديرًا دائمًا عند ستر الغيب المسدل ، الذى  
لا يعلم ما وراءه إلا الله .

\*\*\*

إلا أن الذى ينبغى أن يقال . . هو التحذير من وقع هذه الكلمات ! التحذير من  
الأمل العريض الذى قد تنشئه فى بعض الصدور !  
إن حتمية قيام هذا المجتمع بوصفه ضرورة إنسانية لإنقاذ الإنسانية . وبوصفه الترجمة  
العملية للمنهج الإلهى الذى لا بد غالب . .  
إن هذه الحتمية ليس معناها ، أن الطريق إليه نزهة مريحة ؛ ولا أنه هناك على  
قيد خطوات . .

كلا إن حتمية الميلاد لا تغنى من آلام المخاض !

والطريق إلى المجتمع الإسلامى طويل وشاق . . وملىء بالأشواق . وأعسر ما فى هذا  
الطريق هو أن نرتفع نحن بتصوراتنا ، وبأفكارنا ، وبأخلاقنا ، وبسلوكنا - ثم بواقعنا  
الحضارى المادى - إلى مستوى الإسلام .

ولكنه - بعد هذا كله - ضرورة إنسانية . وحتمية فطرية . ولا بد له من ميلاد .  
ولا بد للميلاد من مخاض . ولا بد للمخاض من آلام !

\*\*\*

ولا بد من معرفة ملامح هذا المجتمع وخصائصه الذاتية بوجه عام ، ولا بد من تصور  
طريقة مواجهته للحضارة القائمة ومنشآتها القائمة ومؤسساتها العاملة . وأوضاعها هنا وهناك .  
ولكن متى ينبغى بيان هذا وذاك ؟

فأما المعرفة العامة للملامح هذا المجتمع وخصائصه الذاتية فنعتقد أنها ضرورية منذ الآن،  
وقد أشرنا إلى بعضها فى ثنايا فصول هذا الكتاب . .

وفي حدود جهدى الخاص : لقد أعددت لهذا بحثا ضخما مفصلا تحت عنوان : « نحو مجتمع إسلامي » وبحثا آخر عن « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » وكلاهما يكمل الآخر في هذا المجال .

وأما معرفة كيف يواجه المجتمع الإسلامي الحياة الحاضرة ، وكيف يتصرف في أوضاعها القائمة - وعلى الأخص صياغة هذا في قالب فقهي مقنن - فهذا ما أعتقد أن كل كلام فيه - في غير الإطار العام - سابق لأوانه . . . بل أشبه شيء باستنبات البذور في الهواء ! إن محاولة وضع أحكام تشريعية فقهية إسلامية لمواجهة أفضية المجتمع الذي تعيش فيه البشرية ، والذي ليس إسلاميا ، لأنه لا يعترف بأن الإسلام منهجه ، ولا يسلم للإسلام أن يكون شريعته ..

إن محاولة وضع أحكام تشريعية لأفضية مثل هذا المجتمع ، ليست من الجد في شيء . . وليست من روح الإسلام الجادة في شيء . . وليست من منهج الإسلام الواقعي في شيء . . إن الفقه الإسلامي لا يستطيع أن ينمو ويتطور ويواجه مشكلات الحياة إلا في مجتمع إسلامي ! مجتمع إسلامي واقعي ، موجود فعلا ، يواجه مشكلات الحياة التي أمامه ، ويتعامل معها ، وهو مستسلم ابتداء للإسلام !

إنه عبث مضحك أن نحاول مثلا إيجاد أحكام فقهية إسلامية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في أمريكا أو روسيا ، فأمريكا أو روسيا كلتاهما لا تعترف ابتداء بحاكمية الإسلام !

وكذلك الحال بالنسبة لأي بلد لا يعترف بحاكمية الإسلام ! وكل فقه تراد تنميته وتطويره في وضع لا يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام ، هو عملية استنبات للبذور في الهواء .. هو عبث لا يليق بجدية الإسلام !

إن مشكلات « المجتمع الإسلامي » في مواجهة الحضارة القائمة ، ليست هي مشكلات

أى مجتمع آخر . إنها ليست مشكلات جاهزة حتى نهى لها حلولاً جاهزة .. إنها مشكلات ستنشأ بشكل خاص ، وبمجم خاص ، وفق ظروف فى عالم الغيب ، ووفق ملابسات لا يمكن التكهن بها الآن .. فمن العبث الجرى وراء افتراضات لم تقع بعد ، على طريقة « الأرايئين »<sup>(١)</sup> التى يعجزها الجادون من مشرعى وفقهاء الإسلام ..

كما أن مشكلات المجتمع الحاضر فى مواجهة الحضارة القائمة ليست مشكلات « مجتمع إسلامى » .. فهذا المجتمع الإسلامى لم يوجد بعد - منذ أن اتخذت شرائع غير شريعة الإسلام لتصرف الحياة - لم يوجد ، حتى تكون هذه مشكلاته . والإسلام ليس مطلوباً منه - ولا مقبولاً منه كذلك - أن يوجد حلولاً فقهية للمجتمع غير إسلامى .. مجتمع أنشأ مشكلاته هذه بسبب أنه لم يعرف الإسلام ؛ أو بسبب أنه هجر الإسلام ، إن كان قد عرفه من قبل ..

فقيم الجهد ؟ وقيم العناء ؟

إنه ليس الذى ينقص البشرية لقيام مجتمع إسلامى هو وجود فقه إسلامى « متطور » ! إنما الذى ينقصها ابتداء هو اتخاذ الإسلام منهجاً وشرعته شريعة . إن الفقه الإسلامى لى يتطور ، ينبغى أن يجد التربة التى يتطور فيها . والتربة التى يتطور فيها الفقه الإسلامى هى « مجتمع إسلامى » يعيش فى العصر الحاضر ، بدرجة الحضارية ، ويواجه مشكلات قائمة بالفعل ، بتكوينه الذاتى .. ومواجهة المجتمع الإسلامى لهذه المشكلات ، لن تكون كمواجهة أى مجتمع آخر لها بطبيعة الحال ..

ولكن هذه البديهة - فيما يبدو - لا تبدو واضحة للكثيرين من المخلصين الغيورين على الإسلام « العقلاء » !

ومن أجل ذلك نكرر ونعيد ونزيد فى الإيضاح ..

---

(١) الذين يسألون : أرايت لو أن كذا وقع .. فما يكون الحكم ؟ ...

إن كل ما يمكن قوله إجمالاً عن المجتمع الإسلامى .. أنه ليس صورة تاريخية محددة الحجم والشكل والوضع .. وأتينا فى العصر الحديث لا نستهدف إقامة مجتمع من هذا الطراز ، من حيث الحجم والشكل والوضع ، إنما نستهدف إقامة مجتمع مكافئ من النواحي الحضارية المادية - على الأقل - للمجتمع الحاضر . وفى الوقت ذاته له روح ووجهة وحقيقة المجتمع الإسلامى الأول ، الذى أنشأ المنهج الربانى . باعتباره قمة سامقة فى روحه ووجهته وحقيقته الإيمانية وتصوره للحياة ، ولغاية الوجود الإنسانى ، ولمركز الإنسان فى هذا الكون ، ولخصائصه وحقوقه وواجباته . وقمة سامقة فى تناسقه وتماسكه .. أما الشكل والصورة والأوضاع فتتحدد وتتجدد بتطور الزمن ، وبروز الحاجات ، واختلاف أوجه النشاط الواقعى ... إلى آخر الملاحظات .. الملاحظات المتغيرة المتحركة .. ولكن التى ينبغى أن يكون تحركها - فى المجتمع الإسلامى - داخل إطار المنهج الإسلامى ، وحول محوره الثابت ، وعلى أساس الإقرار بالوهمية الله وحده ، وإفراد الله سبحانه بخصائص الألوهية دون شريك . وأولى هذه الخصائص هى حق الحاكمية والتشريع للعباد ، وتطويعهم لهذا التشريع .

ومن ثم فإنه ليس « الفقه » الإسلامى هو الذى تنقيد به فى إنشاء هذا المجتمع - وإن كنا نسئله به - إنما هو « الشريعة » الإسلامية والمنهج الإسلامى ، والتصور الإسلامى العام . وهذا يتطلب ابتداء ، أن ترتضى جماعة من البشر اتخاذ الإسلام منهج حياة ، وتحكيمه فى كل شأن من شؤون هذه الحياة - أى أفراد الله ، سبحانه ، بالألوهية والربوبية ، فى صورة إفراده ، سبحانه ، بالحاكمية التشريعية - ولحظتئذ - لاقبلها - يوجد « المجتمع الإسلامى » .. ويبدأ فى مواجهة الحياة القائمة ، بينما هو يكيف نفسه ، وأوضاعه وحاجاته الحقيقية ، ووسائل إشباع هذه الحاجات ، متأثراً بعقيدته ، وما تنشئه من تصورات خاصة ، ومتأثراً بأهدافه ، وما تعينه من وسائل خاصة ، ومتأثراً بطريقته المنهجية الخاصة فى مواجهة الواقع ، والاعتراف بما هو فطرى من هذا الواقع ، وما هو ضرورى لنمو الحياة السليمة ، مع رفض ما ليس فطرياً ولا ضرورياً للنمو ، وما هو ضار ومعتل وساحق لهذا

النمو ، من ذلك الواقع .. وفي خلال هذه المواجهة - بكل هذه الملبسات - ينشأ أحكامه  
الفقهية الخاصة ، أولاً بأول ، في مواجهة وضعه الخاص ..

وهنا .. قد يخدم هذا المجتمع الناشئ ما حسبناه وما نزال نحسبه سوء حظ في انقطاع نمو  
الفقه الإسلامي !

قد تكون هذه خدمة يسرها الله لحكمة ..

ذلك أن المجتمع الوليد سيتجه حينئذ مباشرة إلى شريعة الله الأصلية . لا إلى آراء  
الرجال في الفقه . لأنه لن يجد في آراء الرجال - وهي مفصلة لعصور خاصة وظروف خاصة -  
ما يساوى قده ، إلا بعمليات ترقيع وتعديل ..

وعندئذ يعمد إلى القماش الأصلي الطويل العريض .. ( الشريعة ) .. ليفصل منه ثوبا  
جديدا كاملا ، بدلا من الترقيع والتعديل !

إن هذه ليست دعوة لإهمال الفقه الإسلامي ، وإهدار الجهود الضخمة العظيمة التي  
بذلها الأئمة الكبار . والتي تحوى من أصول الصناعة التشريعية ، ومن نتاج الأحكام  
الأصلية ، ما يفوق - في نواح كثيرة - كل ما أنتجه المشرعون في أنحاء العالم .

ولكنها فقط بيان للمنهج الذي قد يأخذ به المجتمع الإسلامي الذي ينشأ - عندما  
ينشأ - وبيان لطبيعة المنهج الإسلامي في إنشاء الأحكام الفقهية . إنشائها في مواجهة الواقع  
الفعلى للمجتمع الإسلامي . المجتمع الذي يعترف ابتداءً بحاكمية الإسلام .

إن تلك الثروة الضخمة من الفقه الإسلامي ، قد ولدت ونشأت ، يوما بعد يوم ، في  
مجتمع إسلامي يواجه الحياة بعقيدته الإسلامية ومنهجه الإسلامي ، ويعترف ابتداءً بحاكمية  
الإسلام له ، ولا يعترف بحاكمية منهج آخر غير الإسلام - مهما يكن في سلوكه أحيانا من  
مجازاة جزئية للإسلام . ولكن الخطأ في السلوك والانحراف في التطبيق شيء ، وعدم  
الاعتراف ابتداءً بحاكمية المنهج الإسلامي كله شيء آخر .. الأول يقع في المجتمع الإسلامي

ويظل مع ذلك مجتمعا إسلاميا ، يصح أن ينمو فيه الفقه الإسلامى ويتطور . والثانى لا يقع إلا فى مجتمع غير إسلامى . مجتمع لا يصلح بيئة لنمو الفقه الإسلامى وتطوره ، لأنه مجتمع جاهلى لا علاقة له بالإسلام ، مهما ادعى لنفسه صفة الإسلام !  
وشىء آخر ..

إن الفقه الإسلامى ليس منفصلا عن الشريعة الإسلامية . والشريعة الإسلامية ليست منفصلة عن العقيدة الإسلامية . والفقه والشريعة والعقيدة ونظام الحياة كل لا يتجزأ فى التصور الإسلامى .. ومحال أن يكون هناك إسلام ولا مسلمون ولا مجتمع مسلم ، إذا تمزق هذا الكل الموحد مزقا وأجزاء !

وفى أى نظام اجتماعى آخر - غير النظام الإسلامى - تكفى المعرفة بأصول التشريع وطرق الصناعة الفقهية ليصبح للرجل القدرة على وضع الأحكام القانونية ..  
أما فى النظام الإسلامى فإن مجرد المعرفة بأصول الصناعة لا تكفى . فلا بد من أمرين :  
١ - مزاولة العقيدة والمنهج فى الحياة العامة للأمة .

٢ - مزاولة العقيدة والمنهج كذلك فى الحياة الخاصة للمشرع !  
وهذا ما يجب أن نعرفه ، ونحذر من مخالفته ونحن نحاول - الآن - تنمية الفقه الإسلامى وتطويره . هذه المحاولات التى تبذلها جمهرة مخلصه من رجال الفقه والشريعة فى شتى أنحاء الوطن الإسلامى ممن يريدون أو يشيرون بتنمية الفقه الإسلامى وتطويره ، لمواجهة الأوضاع والأنظمة والمؤسسات والحاجات القائمة فى المجتمعات الحاضرة .

إنهم - مع احترامى الكبير لهم والتجاوب مع شعورهم المخلص ورغبتهم المشكورة ، وتقديرى للجهد الناصب الذى يبذلونه - يحاولون استنبات البذور فى الهواء .. وإلا فأين هو « المجتمع الإسلامى » ، الذى يستنبطون له أحكاما فقهية إسلامية يواجه بها مشكلاته ؟

المجتمع الإسلامى هو الذى يتخذ النهج الإسلامى كله منهجا لحياته كلها . ويحكم الإسلام كله فى حياته كلها ، ويتطلب عنده حلولاً لمشكلاته . مستسلماً ابتداءً لأحكام الإسلام . ليست له خيرة بعد قضاء الله ..

فأين هو هذا المجتمع اليوم ؟ أين هو ؟ فى أى زاوية من زوايا الأرض ؟  
إن كل حكم فقهى يوضع الآن لمواجهة مشكلة قائمة فى المجتمعات التى ليست إسلامية ، لن يكون هو الذى يصلح ويواجه الواقع فى مجتمع إسلامى . لأن هذه المشكلة ذاتها قد لا تقوم أصلاً فى المجتمع الإسلامى حين يقوم . وإذا قامت فلن تكون هى بحجمها وشكلها ، ولن تكون طريقة المجتمع فى مواجهتها - وهو إسلامى - هى طريقته فى مواجهتها وهو غير إسلامى ؛ ولأن عوامل شتى ، وملايسات شتى ، تجعل طبيعة المجتمع الإسلامى وطريقته فى مواجهة الحياة والمشكلات غير طبيعة وطريقة المجتمعات غير الإسلامية .  
هذه بديهية .. فيما أظن ..

إن أبا بكر وعمر وعلياً . وابن عمر وابن عباس . ومالكا وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل والشافعى .. وأبا يوسف ومحمداً والقرافى والشافعى . وابن تيمية وابن قيم الجوزية والعز بن عبد السلام وأمثالهم ( عليهم رضوان الله ) .. كانوا - وهم يستنبطون الأحكام - :

أولاً : يعيشون فى مجتمع إسلامى يحكم الإسلام وحده فى شؤونه ، ويتخذ الإسلام وحده منهجا لحياته - حتى مع بعض المخالفة الجزئية فى بعض العصور - ويواجهون الحياة بهذا النهج وبآثاره فى نفوسهم .

ثانياً : يزاولون العقيدة الإسلامية والنهج الإسلامى فى حياتهم الخاصة ، وفى إطار المجتمع الإسلامى الذى يعيشون فيه . ويتذوقون المشكلات . ويبحثون عن حلولها بالحس الإسلامى ..

ومن ثم كانوا مستوفين للشرطين الأساسيين لنشأة فقه إسلامي ، وتطوره ليواجه الأحوال المتطورة . فوق استيفائهم طبعاً لشروط الاجتهاد ، والتي لا مجال هنا ولا داعي لبيانها لأنها بديهية !

فأما الآن .. فماذا ؟؟

إنه لا بد أن نحسب حساب عوامل كثيرة ، تبعد نمو الفقه الإسلامي وتطوره الآن عن منهجه الأصيل .

لا بد أن نحسب بعد الواقع العملي ، والواقع النفسي والعقلي ، والواقع الشعوري والاعتقادي ، عن جو الإسلام والحياة الإسلامية ..

ولا بد أن نتذكر أن المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا ليست مشكلات مجتمع إسلامي ، حتى نستنبط لها أحكاماً فقهية إسلامية !

ولا بد أن نحسب حساب الهزيمة العقلية والروحية أمام الحضارة الغربية ، وأمام الأوضاع الواقعية .. والإسلام يواجه « الواقع » دائماً . ولكن لا يخضع له ، بل يخضعه لتصوراته هو ، ومنهجه هو ، وأحكامه هو ، وليستبق منه ما هو فطري وضروري من النمو الطبيعي ، وليجتث منه ما هو طفيلي وما هو فضولي ، وما هو مفسد .. ولو كان حجمه ما كان .. هكذا فعل يوم واجه جاهلية البشرية ، وهكذا يفعل حين يواجه الجاهلية في أي زمان .

إن أولى بؤادر الهزيمة هي اعتبار « الواقع » أياً كان حجمه هو الأصل الذي على شريعة الله أن تلاحقه ! بينما الإسلام يعتبر أن منهج الله وشريعته هي الأصل الذي ينبغي أن ينفذ الناس إليه ، وأن يتعدل الواقع ليوافقه . وقد واجه الإسلام المجتمع الجاهلي - العالمي - يوم جاء ، فعده وفق منهجه الخاص ؛ ثم دفع به إلى الأمام .

وموقف الإسلام لا يتغير اليوم حين يواجه المجتمع الجاهلي - العالمى - الحديث . إنه يعدله وفق منهجه . ثم يدفع به إلى الإمام .

وفرق بين الاعتبارين بعيد . فرق بين اعتبار « الواقع » الجاهلي هو الأصل . وبين اعتبار المنهج الربانى هو الأصل ..

إنتى أنكر وأستفكر استفتاء الإسلام اليوم فى أية مشكلة من مشكلات هذه المجتمعات . احتراماً للإسلام وجديته .. وإلا فأى هزء واستخفاف أشد من أن تجبى لقاض تطلب حكمة ، وأنت تخرج له لسانك . وتعلنه ابتداء أنك لا تعترف به قاضياً ، ولا تعترف له بسلطان . وأنت لن تقيد بحكمه إلا إذا وافق هواك ! وإلا إذا أقرك على ماتهواه !

إن الإسلام لا علاقة له بما يجرى فى الأرض كلها اليوم ؛ لأن أحدا لا يحكم الإسلام فى حياته ، ولا يتخذ المنهج الإسلامى منهجاً لمجتمعه . ولأن أحدا لا يحكم بشريعة الله وحدها ، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها ، ولا يجعل الكلمة الأولى والأخيرة فى شؤون الحياة كلها لله ولشريعة الله .

والذين يستفتون - بحسن نية أو بسوء نية - هازلون ! والذين يردون على هذه الاستفتاءات - بحسن نية أو بسوء نية - والذين يتحدثون عن مكان أى وضع من أوضاع البشرية الحاضرة من الإسلام ونظامه ، أشد هزلاً .. وإن كنت أعلم عن الكثيرين منهم أنهم لا يعنون الهزل ولا يستسيغونه - لوفطنوا إليه فى شأن الإسلام ! إنما يستفتى الإسلام فى الأمر حين يكون الإسلام وحده هو منهج الحياة . ذلك عند قيام المجتمع الإسلامى . المجتمع الذى يتخذ الإسلام شريعته ولا تكون له شريعة سواه - عندما يأذن الله ويشاء . وثقتنا فى رحمة الله بالبشرية تجعلنا نرجو دائماً أنه - سبحانه - سيأذن بهذا ويشاء .. قيام هذا المجتمع - كما قلنا وكما نكرر - ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية ، وتلبية لنداء الفطرة فى ساعة العسرة ..

وإن كانت حتمية الميلاد لا تغنى شيئاً عن آلام المخاض ..

\*\*\*

ولكن كيف ؟ وهذا الواقع البشرى الضخم يواجه الإسلام ؟  
على الذين يسألون هذا السؤال أن يتذكروا كيف وقع هذا الأمر أول مرة !  
لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ؛ ويقول لها - كما أمر - : إنها  
في جاهلية ، وإن الهدى هدى الله ..

ثم تحول التاريخ .. تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة في قلب ذلك الرجل الواحد ..  
تحول على النحو الذى يعرفه الأصدقاء والأعداء !

هذه الحقيقة التى استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد ، ما تزال قائمة قيام السنن  
الكونية الكبرى .. وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت إلى جاهليتها !  
وهذا هو الأمر فى اختصار وإجمال ..

توجد نقطة البدء . نقطة استقرار هذه الحقيقة فى قلب .. فى عدة قلوب .. فى قلوب  
العصبة المؤمنة .. ثم تمضى القافلة فى الطريق .. فى الطريق الطويل .. الشائك .. الغريب اليوم  
على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة - فيما عدا بعض الاستثناءات - ثم تصل القافلة  
فى نهاية الطريق الطويل الشائك .. كما وصلت القافلة الأولى ..

لست أزعم أنها مسألة هينة . ولا أنها معركة قصيرة .. ولكنها مضمونة النتيجة .. كل شئ  
يؤيدها .. كل شئ حقيقى ، وفطرى ، فى طبيعة الكون ، وفى طبيعة الإنسان .. ويعارضها  
ركام كثير . ويقف فى طريقها واقع بشرى ضخم . ولكنه غثاء ! ضخم نعم .. ولكنه غثاء !  
« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .



# الفهرس

الموضوع	الصفحة
تدمير الإنسان .....	٥
الإنسان ذلك المجهول .....	٩
تخطيط واضطراب .....	٣٣
الإنسان وفطرته واستعداداته .....	٣٩
المرأة وعلاقات الجنسين .....	٦٣
النظم الاجتماعية والاقتصادية .....	٨٧
حضارة لا تلائم الإنسان .....	١٠٦
عقوبة الفطرة .....	١٢٠
كيف الخلاص ؟ .....	١٦٣
طريق الخلاص .....	١٨٢



# بمدر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الاستاذ سيد قطب

- \* في ظلال القرآن
- \* دراسات إسلامية
- \* مشاهد القيامة في القرآن
- \* نحو مجتمع إسلامي
- \* التصوير الفني في القرآن
- \* في التاريخ فكرة ومنهاج
- \* الإسلام ومشكلات الحضارة
- \* تفسير آيات الربا
- \* خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- \* تفسير سورة الشورى
- \* النقد الأدبي أصوله ومنهجه
- \* كتب وشخصيات
- \* مهمة الشاعر في الحياة
- \* المستقبل لهذا الدين
- \* هذا الدين
- \* معركتنا مع اليهود
- \* السلام العالمي والإسلام
- \* معركة الإسلام والرأسمالية
- \* طفل في القرية
- \* العدالة الاجتماعية في الإسلام
- \* معالم في الطريق

مكتبة الاستاذ محمد قطب

- \* الإنسان بين المادية والإسلام
- \* قبسات من الرسول
- \* منهج الفن الإسلامي
- \* شبهات حول الإسلام
- \* منهج التربية الإسلامية ( الجزء الأول )
- \* جاهلية القرن العشرين
- \* منهج التربية الإسلامية ( الجزء الثاني )
- \* دراسات قرآنية
- \* معركة التقاليد
- \* تحت الطبع
- \* في النفس والمجتمع
- \* كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- \* التطور والثبات في حياة البشر
- \* المستشرقون والإسلام
- \* دراسات في النفس الإنسانية
- \* مفاهيم ينبغي أن تصحح
- \* هل نحن مسلمون

الدعوة الوهابية	مصحف الشروق المفسر الميسر
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	مختصر تفسير الإمام الطبري
مسلمون وكفى	تفسير القرآن الكريم
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الإمام الأكبر محمود شلتوت
المسلم في عالم الاقتصاد	الإسلام عقيدة وشريعة
الأستاذ مالك بن نبي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
أنبياء الله	الفتاوى
الأستاذ أحمد بهجت	الإمام الأكبر محمود شلتوت
التعبير الفني في القرآن	من توجيهات الإسلام
الدكتور بكري الشيخ أمين	الإمام الأكبر محمود شلتوت
أدب الحديث النبوي	إلى القرآن الكريم
الدكتور بكري الشيخ أمين	الإمام الأكبر محمود شلتوت
دفاع عن أبي هريرة	الوصايا العشر
الأستاذ عبد المنعم صالح العلي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الحجة في القراءات السبع	الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم	الأستاذ عبد الكريم الخطيب
الإسلام وتوزيع الثروات	اليهود في القرآن
الأستاذ إبراهيم البرايري	الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مدخل الفقه الجنائي الإسلامي	أيام الله
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الأستاذ عبد الكريم الخطيب

---

---

الإيمان الحق	الإسراء والمعراج
المستشار علي جريشة	فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
الجائز والممنوع في الصيام	القضاء والقدر
الدكتور عبد العظيم المطعني	فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
مناسك الحج والعمرة في ضوء	قضايا إسلامية
المذاهب الأربعة	فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
الدكتور عبد العظيم المطعني	دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل
ونزل القرآن	الأستاذ جميل بيهم
الأستاذ أحمد فراج	الإسلام في مفترق الطرق
أيها الولد المحب	الدكتور أحمد عروة
الإمام الغزالي	رحلتي من الشك للإيمان
الأدب في الدين	( باللغة الفرنسية )
الإمام الغزالي	الدكتور مصطفى محمود
شرح الوصايا العشر	كيف أرى الله
للإمام حسن البنا	الدكتور عبد الودود شلبي
خفايا الإسراء والمعراج	فو النون المصري
الأستاذ مصطفى الكيك	الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
حقوق الإنسان بين الإسلام والمذاهب المعاصرة	قال الأولون
الأستاذ عبد الله المحمود	الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام	حياة محمد في عشرين قصة
الدكتور عبد الجليل شلبي	الأستاذ عبد التواب يوسف

---







Universitäts- und Landesbibliothek Bonn



0546633